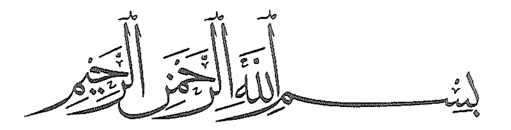
وسم على أديم الزمن

"لمحات من الذكريات"

عبدالعزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثالث

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م


بسم الله الرحمن الرحيم



وسم على أديم الزمن

«لمحات من الذكريات»

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله

وسم على أديم الزمن (لمحات وذكريات) ـ الجزء الثالث./

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر .ـ الرياض، ١٤٢٦هـ.

٣٨٤ ص ، ١٦ × ٢٢,٥ سم

ردمك : ٨ ـ ٧٩٦ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله ـ مذكرات أ ـ العنوان

ديوي ٨١٨,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٦/٦٥٦٠

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٦٥٦٠

ردمك : ٨ ـ ٧٩٦ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

مقدمة

هذا هو الجزء الثالث من مذكراتي «**وسم على أديم الزمن**»، وهو مثل سابقيه من الأجزاء عن حياتي في مسقط رأسي عنيزة في القصيم، وقد أوردت فيه ما لم يتسع المجال لإيراده في الجزأين السابقين، أو ما تذكرته بعد أن انتهيت من كتابتها.

لقد احتوى هذا الجزء على سير مختصرة عن بعض العلماء البارزين، وبعض الأخبار التي سمعتها عنهم في أيام طفولتي، وبعض هذه الأخبار طريف يُضفي جوّاً باسماً على حياة المجتمع حينذاك، خاصة القضاة، وما له صلة بالناس، وما يأتي من المتقاضين من أمور

تأتي من نظرتهم غير المتكلفة للحياة، وتُبيّن أحياناً صبر القضاة، وسعة بالهم، وتفهمهم لمواقف المتقاضين، ومن هؤلاء القضاة من يأتي بالتصرفات المبهجة دون أن تخدش هذه التصرفات هيبته، أو احترام الناس له، بل يُرى أنها من الأصالة بحيث تستحق أن تُروى، ولا تُنسى.

وفي هذا الجزء لمحة عن حقبة كفاح ترك فيها الشباب عنيزة، وانداحوا في أرض الله الواسعة، بحثاً عن الرزق الواسع، الذي لم يجدوه في مدينتهم عنيزة، فنجحوا في مسعاهم، وأصبحوا رجال أعمال يشار إليهم بالبنان. ولهم تقدير وإعزاز في مجتمعهم، ولهم مساهمة في رفع رأس بلدتهم بما اتصفوا به من خُلُق، وحسن سير.

وفي هذا الجزء كذلك صور متعددة عن أمور هي لُحمةُ ذلك المجتمع وسَدَاه، وبدون رسمها لا يُعرف المجتمع على حقيقته. من هذه الأمور ما يخص الرجال، ومنها ما يخص النساء. ومن الأمور التي تطرق لها هذا الجزء في هذا المجال حليّ النساء، والإنارة، والنواحي الصحية، وقد تُوسّع في الحديث عن الحُلِيّ وأنواعها واستعمالها، والملابس، وبعض أنواع الوقود، ووصف بعض البيوت.

وفي هذا الجزء كذلك صورة لفكر المجتمع حينذاك، متمثلة في أقوالٍ وأمثالٍ وحكمٍ، بعضها جاء بصيغته الصحيحة، وبعضها وصلنا محرّفاً قليلاً، بحيث نستطيع أن نُصلح الخلل، أو محرّفاً كثيراً، بحيث لم يبق منه إلا صورة لا تدل على معنى مفهوم، وهذا يشهد بمدى

ما فعله تسلسل الرواية من جيل إلى جيل، ومن فرد إلى آخر.

بعض هذه الأقوال، أو الأشعار، أو الأمثال هي صورة صادقة لذلك المجتمع، لأنها مأخوذة من بيئة البدوي، أو الفلاح، أو التاجر، فمُتناولها على هذا قريب، وكله من وحي البيئة..

عبدالعزيز الخويطر

العلماء :

تقدير الناس في بلادنا للعلماء أمر يرضعه الطفل مع لبان أمه، هم السُّرُج في المجتمع، يعترف الناس بفضلهم لنور العلم الذي يحملونه في صدورهم يهديهم في سيرهم في مجتمعهم، فهم الذين يتولون الصلح بين المتخاصمين، والفتوى للمتحرزين الذين يبحثون عن الحقيقة فيما يقرره الشرع، وهم قدوة في أقوالهم وأعمالهم، وهم المثال الجيد لحسن التصرف، وسلامة المتابعة.

يَقْدمهم في القضاء خيرهم لحمل عبئه، فيصبح القاضي نبراساً في بلدته، يؤُمُّ المصلِّين في المسجد الجامع، ويتصدّى للتعليم فيه، يُنير مجالس حفلهم، ويبارك أعمال الخير التي يتقدمون بها، فهو المؤتمن على

الزكوات وهو الموثوق به في تقسيم الصدقات.

هذه هي الصورة التي في ذهني وأنا صغير، ولهذا نفخر ونحن صغار إذا ما مر بنا عالم عنيزة الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ وسلمنا عليه، وكأننا ملأنا أيدينا بالبركات، وبوسيلة تفاخر نباهي بها زملاءنا الذين لم يحظوا بهذا الشرف العالي. والمردود النفسي من هذا لا يكاد يَحدّه حدّ، أو تَصفه الكلمات.

لقد استطاع أهلنا ومواطنونا أن يبنوا للعلماء هذه المكانة في النفوس، وهو أمر تكوَّن مع الزمن، ومن المكانة النبيلة التي أثبت العلماء أنهم أهل لها، فهي بهذا طبعيّة، لا تكلّف فيها لا من هؤلاء العلماء، ولا من الناس. وكان مجيء عالم إلى عنيزة من منطقة أخرى يُعد كسباً عظيماً، ويُستقبل بالترحيب. لهذا عندما جاء

عنيزة أُناس من بارزي الأسر في أوشيقر من آل قاضي وآل بسام رُحب بهم، وجاء الترحيب كذلك بالمؤرخ إبراهيم بن عيسى عند مقدمه لعنيزة، ورحبت عنيزة بمن وفد إليها من آل دامغ من سدير، جاء هؤلاء يحملون نور العلم في مجال أو آخر، فاستوطنوا عنيزة، وصاروا من أبرز الأسر فيها، ولهم التأثير في كل مجال سلكوه.

القضاء والقضاة:

اختير للقضاء في عنيزة أبرز العلماء، وتعاقب على القضاء بعد أن حكم الملك عبدالعزيز - رحمه الله - عدد من القضاة، كان منهم عندما كنت في عنيزة الشيخ عبدالله المانع.

الشيخ عبدالله المانع :

الشيخ عبدالله ـ رحمه الله ـ رجل ديّن، رقيق الحاشية، يكاد يخشع في سورة الفاتحة من رقّة شعوره، وخوفه الشديد من الله. أذكره جيداً ـ رحمه الله ـ وأعرف بيته القريب من مسجد المُسَوكف، وكان هو إمامه. وكان هيّناً ليّناً مع المتخاصمين.

وقد استغلّ، في إحدى الخصومات، أحد الخصوم، الذين لم يوفقهم الله، طيبه، و «حبابته». وكان الوقت صيفاً، فلجّ هذا الخصم، ورفع صوته، فلمس الشيخ ركبة هذا الرجل بالمروحة لمساً خفيفاً، ونهاه عن رفع الصوت. فاستغل هذا الخصم لمس ركبته بالمروحة (المهفّة)، وهي من الخوص، وعدّها هذا الخصم ضربة، فأخذ يبكي، ويدّعي على الشيخ أنه اعتدى عليه في مجلس

القضاء، فما كان من الشيخ، بعد أن أصدر حكمهُ في هذه القضية، إلا أن أرضاه بإعطائه جنيه ذهب، سيجده إن شاء الله عند قاضي القضاة يوم الدين.

هذه القصة سمعتها وأنا صغير، ولم أتأكد منها، خاصة وأن الجنيه الذهب مبلغ كبير، ولكني أروي ما طرق سمعي، وما تناقله الناس حينئذ، وقد لا يكون بالإمكان التأكد من صحة الواقعة اليوم، فأطراف القصة قد لاقوا ربهم، وكان الرواة حينذاك يحرصون على أن يذكروا أسماء أبطال القصة إسماً إسماً.

الشيخ صالح العثمان القاضي:

تاريخ حياة الشيخ عبدالله المانع، وتاريخ حياة الشيخ صالح العثمان القاضي، قد وثقتها الكتب التي

كُتِبَتْ عنهما. وأنا أقتصر على الصورة التي ارتسمت في ذهني عنهما وأنا في تلك السن، ورصدها بهذه الصورة يُظهر الفرق بين الحقيقة وما تتناقله الألسن دون تحقيق، وفيها شواهد لما يطرأ على الرواية من تحريف.

والشيخ صالح العثمان القاضي في منتهى الذكاء والفطنة، وسعة العلم، وحسن التصرف، لمّاح نابه، يعرف نفوس الناس وطبائعهم، لا يُخْتل ولا يمر عليه التدليس دون أن يكتشفه، سمح النفس، واسع الصدر، غير متعجل، عرك الحياة، اتسعت ثقافته من سفره إلى بلدان كل خطوة فيها تضيف إليه جانباً من جوانب الثقافة. ولهذا كان قاضياً ناجحاً، وذكرُه شرَّق في البلاد وغرَّب، واشتهر بنباهته ويقظته

وبأحكامه الناضجة، الصائبة، وقد اتّخذت بعض هذه الأحكام فيما بعد مثلاً، قاس عليها القضاة من بعده حكمهم، فساهم في معالجة أمور ذلك الزمن، وفيها بعض ما يخص المزارع وتداخلها ومسايلها، وما يخص الأملاك والأوقاف، والصُّبَر (الحكر) وما يأتي منها من المغلق والمشكل. ولشهرته في زمانه ـ رحمه الله ـ أصبح مثل القاضي إياس؛ يُنسب إليه كل حكم فيه دقة ونباهة وإبداع.

نباهة وأناة:

ومن القصص التي أظن أنني سبق أن أشرت إليها في أحد كتبي قصة جاءت بين يديه في أول حكم الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ قبل أن تستقر الأمور، وكان أمراء المناطق، وبعض البلدان قد أعطوا سلطة

مطلقة لما يقتضيه الظرف، وسرعة المعالجة، وزرع الهيبة، واتخاذ الحزم بعد الفوضى السابقة. وكان أمير عنيزة حينئذ الأمير عبدالعزيز بن عبدالله السليم، وكان حازماً، حريصاً على أن لا يُعطَى أحد الفرصة ليتهاون بأمر الأمن. وكالمعتاد جلس الأمير بعد صلاة العصر مع القاضي الشيخ صالح العثمان على «الحبوس» (المقاعد) التي بجوار المسجد الجامع، لينظرا في أمور الناس، إن حكماً وإن تنفيذاً، والسوق الأكبر أمامهما فيه بيع الأنعام وشراؤها، وهذا يتطلب سرعة البت فيما يشتجر بين بائع ومشتر.

وبينما هما قاعدان هناك، وكان ذلك في شهر رمضان جاء أحد المعاتيق الفقراء المدقعين فقراً، وشكى إلى الأمير عبدالعزيز رجلاً معروفاً، وادّعى أنه أخذ

«قعوده» (بعيره)، وذكر أنه الآن يذبحه في حوش بيته، فاستشاط الأمير غضباً، وحُقّ له أن يغضب، وأبرق وأرعد، وهدد بأن يجعل الجاني أمثولة لغيره بالأدب الذي سوف يؤدبّه به، والعقاب الذي سوف ينزله عليه، وأمر أحد رجاله أن يحضره، وقد لا ينجو من الموت، لما أقدم عليه من إخلال بالأمن، واستهتار بالحكم، وفي رمضان!.

فقال له الشيخ صالح بهدوء العالم، وحكمة القاضي المجرب:

ألا تسمح لي، أيها الأمير، أن أريحك من إزعاج هذه المسألة؟

قال الأمير: هي لك.

سأل الشيخ صالح الشاكي:

لا أعرف أن عندك «قعوداً» فمن أين لك هو؟

قال الشاكي: ذهبت الليلة البارحة خارج البلد، و «حِفْت» (درت حول) بدو مقيمين في «الحُفَيِّرة» وسرقت منهم هذا القعود..

فالتفت الشيخ مبتسماً إلى الأمير، وقال:

لعل من الأفضل أن ترسل معه رسولاً من عندك، فإن كان بقي من الجمَل شيء، يُعطى منه «شلعاً» أي جزءًا، فالسارق يستحق أن يكون مسروقاً. وهو حكم يتسق مع ذلك الوقت، ولا يعرف مدى العدل في هذا إلا من عاش في ذلك الزمن المخيف، وعرف معرفة بصيرة بالعلاقة غير الحسنة حينئذ بين الحاضرة والبادية.

ومن الطرائف التي تمر على القضاة أحياناً ما يأتي من

الخصوم من ألفاظ نابية توجه للقاضي، أو في مجلسه، مثل التي سبق أن ذكرتها عن قصة القيلولة[1]. وقد رُوي عن موقف محاكمة أمام الشيخ صالح العثمان فيها من الطرافة ما جعل الشيخ صالح نفسه لا يملك نفسه من الضحك، وهي تدل على ما يتمتع به ـ رحمه الله ـ من سعة صدر وتسامح، وعلى ما لا يخفى عليه من العوامل النفسية التي تحكم مثل هذه الأمور، وما جبل عليه الناس من الراحة، وعدم «اللّف والدّوران» أو تزويق الكلام وتنميقه:

جاء اثنان يختصمان عنده، أحدهما من أسرة النعيْم والآخر من أسرة العقيل. كان أحدهما قد ابتاع، قبل سنتين، بندق صيد، ولكنه ادعى أنه لم يستعملها منذ

(١) نشرت في المجلة العربية، عدد ذو القعدة عام ١٤٢٦هـ.

أن ابتاعها، فلما أراد أن يستعملها في هذا العام وجدها معيبة لا تعمل، ثم طلب من البائع أن يستردها، ويعيد له ما دفعه له من ثمن.

فقال البائع: كيف استعيدها بعد عامين، وكيف يثبت أنه لم يستعملها، وأن خرابها ما جاء على يده.

ولعل الشيخ شك في أمر دعوى المشتري، وأراد أن يستقصي البائع ماله من حق في الدفاع عن موقفه، قبل أن يقرر الحكم فقال للمشتري:

إن البائع يقول: «إثبت» أن هذه البندق هي التي بعتك إياها قبل سنتين.

فقال المشتري: يا شيخ، خصمي ما قال هذا الكلام، أنت الذي قلته، «قلّك ورقلك».

فضحك الشيخ.

الخصم الثالث :

عندما يكون الحكم في قضية من القضايا فيه طرافة، يتناقله الناس إعجاباً، ويبقى في أذهانهم يتحدثون عنه عندما يستوجب الحديث ذلك. ومن القصص التي تروى عن حكم طريف يُنسب إلى الشيخ صالح العثمان، وينسبها أهل كل بلد في نجد تقريباً إلى قاضي بلادهم، والله أعلم من هو القاضي الذي نظر في هذه القضية، وقد يكون الحكم قاعدة يكررها القضاة كلما تكررت الشكوى الخاصة بها، والقصة كما يأتي:

جاء إلى القاضي فلاّحان لهما مزرعتان في الوادي، وادعى كل واحد منهما أن الآخر زحف بزرعه على مزرعته، وطلبا من القاضي النظر في دعواهما، والبتّ فيها، فقال لهما القاضي:

إن لكما خصماً ثالثاً، وسيتقدم فيما بعد بشكواه لأخذ حقه، وسيأخذه.

فقالا: إنه لا خصم ثالث لنا، وليس بجانبنا مزارع ولا مزارعون.

فقال القاضي: ولكني أنا أعرف أن لكما خصماً.

فصرفهما على أن يستدعيهما عندما يأتي الخصم الثالث، فلما دخل موسم الأمطار، وهطلت الأمطار، وسال الوادي، أخذ من مزرعتيهما جزءًا وافياً دخل فيه موقع النزاع وأكثر، فلما رآهما القاضي بعد ذلك قال لهما:

ها هو خصمكما الثالث قد جاء وأخذ حقه وافياً كاملاً وأنتما تنظران.

يكاد أهل كل مدينة في نجد فيها قاضٍ، وعندها

واد عليه مزارع، يدّعون أن هذه القصة وهذا التقاضي حصل في واديهم، وهذا الحكم حكم قاضيهم، وهذا أمر لا يستغرب، ولا يقتصر على هذه القصة، وإنما يتعدى إلى قصص أخرى مختلفة تحيط بأحد جوانبها طرافة، أو فيها ما يوجب الاستغراب، بل إن هذا لا يقتصر على زمن دون زمن، فمثلها ورد في القصص المدونة في العصر العباسي وما بعده. فنحن نجد قصة منسوبة لشخص في وقت من الأوقات، ثم نجد كاتباً آخر نسبها لشخص آخر، وأحياناً يتوقف الأمر على طبيعتها، فإن كانت مدحاً، وكان هناك راوٍ أو كاتب يدين بالولاء الصادق لخليفة،أو شيخ قبيلة، أو إمامٍ مذهب، نسبها إليه، وأشاعها عنه. وإن كانت قدحاً وكان الراوي أو الكاتب يكره شخصاً ممن ذكرنا في

زمنه، نسبها إليه، وأشاعها عنه. وعلى هذا فهذه طبيعة بعض البشر.

الشيخ عبدالله بن عايض :

في صغري عندما يتحدث الناس في مجالسهم أسمع عن بعض العلماء والقضاة، خاصة أولئك الذين دخلوا قلوب الناس في زمنهم، بخفة روحهم، وصواب أحكامهم، وكان من بين هؤلاء الشيخ عبدالله بن عايض ـ رحمه الله ـ ويذكرون أنه شيخ جليل، معروف بمرحه، وترك في عنيزة سمعة بصفاء البلّور، وكان ـ رحمه الله ـ متواضعاً، وصاحب طرائف، ومن طرائف القصص التي تُروى عنه القصة التالية:

مرت أمامه جارية لأسرة البسام، ومعها وعاء حليب، فأوقفها ـ رحمه الله ـ وأخذ منها الإناء وشرب

ما فيه، فقالت له:

ماذا أقول لأعمامي عندما أعود إليهم بوعاء الحليب خالياً؟.

قال لها قولي:

العبد أبو طِرْباقة   شرب حليب الناقة

رحمه الله، لو لم يفعل ذلك لما وصل إلينا هذا البيت المشعّ الطريف، ولابد أن البسام لما بلغهم الخبر سرّهم ما فعل الشيخ. ولا يخشى أن يؤخذ ما فعله على أن فيه رائحة الرشوة للمستقبل، وما قد يأتي به، لأن الأسر الكبيرة والمحترمة لا توصل ما يحصل بينها والآخرين للقضاء، وكانوا عادة يحلون قضاياهم بالحسنى مع من تحدث لهم معهم مشكلة، لأن الجلوس عند القاضي، في تلك الأيام لا يُنظر إليه نظرة عالية عندما يكون

في الأمر مداعاة، ولهذا، هذه الأسر عندما يجلسون عند القاضي يجلسون عنده مستفتين، وأكثر الأحيان يفتي لهم وهو يمشي وهم معه بعد إحدى الصلوات، ويأخذون رأي القاضي فيما اشتبه أمره عليهم. ليس هناك محكمة، فالقاضي يحكم بين الناس إما في المسجد، أو على «حِبْس» المسجد، أو في داره، أو وهو جالس عند صاحب دكان، أو وهو يمشي، وحكم القاضي ينفذ بمجرد أن ينطق به.

والقاضي يصاحبه عادة رجل يمشي معه بصفة خادم وحارس، خوفاً من أن يتعرض له بعض السفهاء أو مختلو العقل بمضايقة أو أذى، وفي الوقت نفسه يقوم بما يوجهه به القاضي من وصية، أو تنفيذ حكم، أو ما يدخل في نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ذكاء قاضٍ:

لأحد القضاة قصة مع أحد المُؤذين، من سفهاء شباب عنيزة، وقد تصرف معه ـ رحمه الله ـ تصرفاً ذكياً حكيماً، يدل على نباهة وفطنة، وحسن تصرّف.

في ليلة من الليالي، وهو يمر بإحدى «القبب» (المجبب)، لحق به شخص من خلفه، وضربه ضربة قوية على ظهره، وهرب أمامه. وبعد ثوانٍ أقبل شخص من الجهة التي هو متجه إليها، والتي اتجه إليها الضارب، فسلم هذا القادم على الشيخ وقال له الشيخ:

مرّ بي قبل قليل رجل سلم عليّ ولم أعرفه، واستحييت أن اسأله عن اسمه، وقد مرّ بك الآن فمن هو؟

قال الرجل: هو فلان.

قال الشيخ: جزاك الله خيراً.

وتبين أن هذا شاب نزق، وسكت الشيخ، وفي الصباح لقي هذا الشاب جزاءه من الأمير.

حزم قاض:

عُرف أحد قضاة عنيزة بالتبحر في العلم والنباهة في حل القضايا، وفي حسن التصرف. وكان هناك بدوي دخل عنيزة، وهو ممن يدخنون، ومعروف أنه يمكن للمدخن في عنيزة أن يجد بغيته في عنيزة، فدله من دلّه على شخص يبيع «التتن» (الدخان)، فذهب إليه، وكان خارج بيته، فصادف، والبدوي يسأله: إن كان بإمكانه أن يبيعه شيئاً من «الشاور» (نوع فارط من الدخان)، أن لمح بائع الدخان هذا القاضي مقبلاً، ومعه «رجّاله» (خادمه). فقال بائع التتن:

أنا لا أبيعه، ولكن الذي يبيعه هذا الرجل المقبل

وعليه المشلح.

فذهب البدوي رأساً للقاضي، وسلّم عليه، وطلب منه أن يبيعه شاوراً، فأدرك القاضي، وقد رأى البدوي يتحدث مع بائع الدخان، أنه هو الذي غشّ البدوي، وأرسله إليه.

فقال القاضي لرجّاله: إذهب مع هذا البدوي، وقل لفلان، وأشار بيده إلى بائع الدخان: بأمري عليه أن يملأ «كيسة» البدوي دخاناً بدون مقابل، وإن لم يفعل فخذه وأدخله «الصفّة» أي السجن.

فذهب رجّال القاضي، ونفذ ما أمر القاضي به، وبهذا انقلب السحر على الساحر، ورجحت كفة عقل القاضي على سذاجة بائع الدخّان، ومن قال للبيضة ناطحي الحجر؟! وقد حصد الرجل ثمر الشوك الذي

زرعه. ولا يمكن أن يقدم هذا الرجل على عمل مثل هذا بعد اليوم، خاصة وأن الدخّان، وهو يُباع سرّاً، يأتي عن طريق التهريب، وليس مجيؤه منتظماً، وملء الكيسة ليس قليلاً.

وكأني بهذا القاضي ـ رحمه الله ـ قد أدّب بهذا ذلك الرجل، وحرم بعض زبائنه ممن كانوا يشترون منه، ويدفعون ثمناً غالياً لما يشترون، وهذا في نظره فيه أدب أكثر مما لو عاقبه على بيعه، خاصة وأن النظرة إلى الدخان في عنيزة لم تكن متدنية إلى الحد الذي كانت عليه في بقية بلدان نجد.

وكان الدخان منتشراً بين رجال البادية، وكانوا يشربون «السبيل» (الغليون)، وأحياناً يكون بدائياً، مصنوعاً من عظم ساق الضأن، وأصبح متعارفاً عليه

عند الصغار أن البدوي كلما كبرت عمامته صدقت التهمة بأنه شارب دخان، وأنه يخفي السّبيل فيها، فكانوا ينتهزون فرصة ازدحام الناس في خروجهم من المسجد الجامع، ويجرّون ذؤابة العمامة، فيقع «السّبيل» على الأرض، فيخجل البدوي أن يلتفت ويلتقطه.

غنيمة حرب:

مما يؤكد انتشار الدخان في فترة من الفترات بين رجال البادية ولعل هذا بتأثير من بادية الشام، قصة رواها أحد رجال البادية، وهذه هي، وقد سمعتها منه:

اصطدمنا مع قبيلة أخرى، وربحنا المعركة، وانسحب رجال القبيلة، فأخذنا نفتش كالمعتاد في

جيوب القتلى، فرأيت أحد الشباب مقتولاً، ومرتمياً على وجهه فقلبته، فرأيت وجهاً جميلاً مضيئاً، وأخذت أبحث في جيوبه، فوجدت في أحدها «كويس» هيل، ووجدت معه كذلك «كويس شاور» (دخان) فجلست بجانبه أندبه كأني أمه لأن كل مقومات الرجولة والكرم متوافرة فيه، مع علمي أنه لو أتيحت له الفرصة لقتلني.

الدخان نادر وغال، ومثله الهيل، وهما المادتان المسموح للضيف أن يمد يده بها للمضيف إذا شحت عند المضيف، وهذا خير مقياس.

حيلة للشيخ محمد الحمد الشبيلي (أبو سليمان):

أُدخِلَ هنا الشيخ محمد الحمد ضمن حديثي عن العلماء والقضاة، لأن القصة تلمس أحدهم. فالشيخ

محمد ـ رحمه الله ـ كان كريماً تعدَّى كرمه الحدود المتعارف عليها، فلقد كان حاتم وقته، وسمعته طبقت الآفاق في هذا.

كان ـ رحمه الله ـ في وقت من الأوقات قنصلاً للمملكة العربية السعودية في البصرة في العراق، وزاره صديق له من عنيزة، وهذا الصديق طالب علم مرموق، ومن علية القوم، وكبار الأسر، وأنزله ضيفاً عنده، وكلما عزم هذا الضيف على الرحيل، والعودة لعنيزة ضغط عليه الشيخ محمد، وألحّ عليه بالبقاء، إلى أن لم يبق في القوس منزع، ولم يعد الإلحاح يفيد. ففكّر الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ في حيلة ذكية، فكّر فيها من منطلق كره طلبة العلم لتولّي منصب القضاء، في ذلك الزمان، فقال لضيفه:

إن الملك عبدالعزيز يبحث عن عشرة من طلاب العلم لينصبهم قضاة في بلدان مختلفة، وإن اسمك قد ورد ضمن القائمة، وأنا أرى أن تبقى معنا حتى يخف البحث عنك، وييأس الملك عبدالعزيز من عودتك، فيختار غيرك في المكان الذي أراده لك.

فأذعن الضيف، وشكر أبا سليمان على إنقاذه من منصب القضاء. ولا أدري هل كشف الضيف فيما بعد هذه الحيلة بعد أن عاد إلى عنيزة، أو بقي جاهلاً بها. المهم أن (أبا سليمان) قد حقق رغبته، ونال هدفه، وأبقى صديقه المدة التي أراد له أن يبقى فيها ـ رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته ـ.

حيلة قاضٍ:

كنا في تبوك بمعية صاحب السمو الملكي الأمير

سلطان بن عبدالعزيز، في زيارة له لاختيار موقع القاعدة هناك. وفي عصر أحد الأيام ذهبنا مع سموه خارج مدينة تبوك لنصلّي صلاة المغرب، ومع سموه كبار موظفي الدولة، ومن بينهم القاضي ومدير الشرطة، ونحن في انتظار دخول وقت صلاة المغرب قال مدير الشرطة لسموه:

لعل فضيلة القاضي يحدث سموكم عن قصته مع زوجتيه، وكيف احتال على الأولى، وتخلص من لومها إياه، واتهامها له بأنه متزوج من أخرى. فأخذ القاضي يقص القصة عليه، فقال:

تزوجت زوجة ثانية خفية عن زوجتي الأولى، ولكنّ قلبها أخبرها أن لي زوجة أخرى، رغم أنه لا دليل عندها، وصارت تتّهمني داخلاً خارجاً، وأنا

أنكر وأدافع ظنها بقوة ومنطق، وتقتنع مؤقتاً، ثم تعود إلى الشكّ والاتهام، ورمي الكلمات المقلقة، وتحاول كشف المستور، وأنا أزيد في إخفاء الأمر، فاتفقت أنا وزوجتي الجديدة على خطة تريحني من هذه المشاغبات، وهذه هي الخطة وطريقة تنفيذها:

جاءت زوجتي الثانية ونحن في صلاة الظهر إلى بيتي، واستقبلتها زوجتي وهي لا تدري من هي. وقالت لها زوجتي الثانية:

إني أريد أن استشير فضيلة القاضي، وآخذ نصيحته في أمر أقلقني وأقضّ مضجعي، فلعل الوقت الآن مناسب؟ فرحبت بها الزوجة وقالت:

يمكنك أن تعرضي ما عندك عليه عندما يعود بعد

قليل من صلاة الظهر.

وعاد الشيخ، وأخبرته زوجته الأولى بأن امرأة في «المجلس» تريد أن تراه، وتعرض عليه أمراً تريد أخذ رأيه فيه.

فدخل القاضي غرفة الاستقبال هو وزوجته الأولى، لأن الأخرى ليس معها محرم، ولا يمكن أن تبقى المرأة الثانية مع القاضي وحدهما.

بدأت الزوجة الثانية، بحضور الأولى، تشرح للقاضي ما جاءت لأجله، وقالت:

إن لي زوجاً أحبه ويحبني، وفيه كل الصفات الحميدة، ولم أر منه إلا كل خير، ومرت الأيام الأولى من سنواتنا الأولى سمناً وعسلاً، ولابد أنها قد أصابتنا عين، فقد لاحظت في الشهور الأخيرة

ما جعلني أتوهّم أنه قد تزوج امرأة أخرى، وأنه منشغل بها عني، ومع الوقت بدأ الأمر يتجهم في ذهني، حتى أكاد أجزم أن ظني صحيح، وبدأت أفاتحه، فأخذ ينفي بشدة ومنطق، ويأتي بالبراهين تلو البراهين، فأخجل من نفسي وأقبل، وتهدأ هواجسي، وأتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكن الشيطان أقوى مني، يعود فيمطرني بوسواسه، ثم أبدأ من جديد في تنغيص حياة زوجي، وإقلاق راحته، وهذا دأبي دائماً، وأخشى يا فضيلة الشيخ أن يأتي وقت لا يتحمل مني هذه المناكفة، وفي لحظة غضب يرمي عليَّ كلمة الطلاق، وجئت استنصح فضيلتك.

فقال: يا ابنتي، أنت صادقة في أن ما تعانينه ما هي

إلا أوهام، ووسائس الشيطان، والشيطان لن يترك وسائسه حتى ينال مراده منكما، فاستعيذي بالله منه، وعاهدي الله أنك لو رأيته مع هذه الزوجة الوهمية لما صدقت ما رأيت، وبهذا ييأس الشيطان، ويندحر. وهذا فعله مع الأزواج السعداء.

لا تذهبي بعيداً في أفكارك وأوهامك، فأنتِ، وأنت تصفين حالك مع زوجك كأنك تصفين حال زوجتي معي تماماً دون نقص أو زيادة. والآن أنا أحلف أمامك بالطلاق: إن كان لي زوجة خارج هذه الغرفة فهي طالق بالثلاث.

فنهضت الزوجة القديمة، وقبّلت ركبته، وأقسمت أنها لن تلتفت لوساوس الشيطان بعد اليوم ولن يأتي زوجها أي مضايقة منها، أو ذكر لزوجة ثانية.

وهكذا استطاع الشيخ بهذه الحيلة أن يرسي دعائم السعادة في بيته، ويدخل الطمأنينة إلى قلب زوجته الأولى بحيلة ليس فيها إثم. أليست هذه الحيلة داخلة في نطاق إصلاح ذات البين؟!

حذو القذة بالقذة :

بعد سنوات قليلة من سماعي هذه القصة وقع في يدي كتاب: «السياسة والحيلة عند العرب .. رقائق الحلل في دقائق الحيل»[1]، فقرأت فيه في صفحة (٢٠٠) قصة مماثلة لهذه القصة، فهل القدم وطئت على جادة القدم الأولى، ولم يكن الشيخ القاضي يعلم عن هذه القصة، التي في «رقائق الحلل»؟ أو أنه سبق

(١) نقل: رنيه خوام. مراجعة الدكتورة نازك سابا يازد، دار الساقي. الطبعة الثالثة ١٩٩٩م.

أن قرأها، واستفاد منها. وهذه هي القصة كما وردت في هذا الكتاب:

حيلة القاضي أبي الحسن بن عقبة:

قال: كانت لي ابنة عم موسرة (غنية)، ولم تكن حسنة، إلا أنني كنت استعين بمالها، وأتزوج سرّاً عنها، فإذا فطنت لذلك هجرتني، وضيّقت عليَّ، ونكّدت عيشي حتى أطلق الزوجة، وتعيد إحسانها.

فتزوجت بعض المرات صبية كما في نفسي، موافقة لطباعي، مساعدة على اختياري، فبقيت معها مدة يسيرة، فسُعي يوماً إلى ابنة عمي، فأخذت في النكد والمنافرة، والتضييق عليَّ، ولم يسهل عليَّ فراقها.

فقلت لها يوماً: البسي أفخر ثيابك وأملحها، وتبخّري بعود، وادخلي على زوجتي، وابكي بين

يديها، وتضرّعي حتى تضجريها، فإذا سألتك عن حالك، فقولي لها:

لي ابن عم كل وقت يتزوج عليَّ بمالي واحدة واحدة، ويضيع مالي عليها، وأريد أن تسألي القاضي معونتي عليه، وإنصافي منه، فإنني أريد إحضاره.

فإنها ترفعك إليَّ.

فعملتْ ما أمرتُها به، فلما دخلتْ عليها، وأعادت إليها ما علّمتُها إياه، قالت لها:

وسيدنا القاضي شر من زوجك وأدهى.

ثم إنها دخلت عليَّ، وهي غضبانة، ويد الصبية في يدها، وقالت:

هذه المرأة حالها مثل حالي، فاسمع كلامها، وأنصفها من زوجها.

فقلت: ما شأنها؟

فذكرت ما علّمتُها إياه، فقلت لها:

هل شاهدت زوجته؟

قالت: لا والله.

فقلت: يا هذه اتق الله، فإن الناس لهم كربون (كذا) بحيث يفسدون أحوال الناس، فلا تقبلي شيئاً مما سمعته، فإن الحساد كثيرون، وهذه زوجتي قد نقل لها أنني تزوجت.

فقالت لي زوجتي إي والله تزوجتَ.

فقلت لها بجود: وكل امرأة لي بغير هذه الدار طالقة ثلاثاً بثلاث. إيش تقولين؟

قالت: صدقت، والذي بلغني كذب.

ومضت الأخرى إلي بيتها وصفا عيشي معها كما أختار.

(يُلاحظ ضعف اللغة والتعبير العامي في صياغة القصة).

وقد كتبت عن هاتين القصتين مقالة بعنوان «حذو القذة بالقذة» في المجلة العربية، بالعدد (٣٣١) في السنة (٢٩) بعدد ذي القعدة ١٤٢٥هـ الموافق: يناير ٢٠٠٤م.

ومن قرأ القصتين يقف حائراً مثلي: هل قاضي زمننا اطّلع على حيلة قاضي ذلك الزمن؟ أو أن الفكر طرق جادة فكر قاضي ذلك الزمن؟!

الثقافة:

كانت الشركة العربية للزيت في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية قِبلة كل شاب طموح في نجد، لم يجد العمل الذي يناسبه في بلدته. كانوا يذهبون ويلتحقون بعمل بها، ويلتحق بها حتى من لا يعرف «فك

الحرف»، ولا يقرأ ولا يكتب، وليس عنده مبادئ محدودة في القراءة والكتابة. وكان يجد كل واحد من هؤلاء ما يناسبه من العمل. والعمل في هذه الشركة جاد، وهي لا تبخل بمردود المال أو بالمبادرة. فأصبح صاحب حظٍ عظيم ذلك الذي تقبله الشركة في عمل من أعمالها.

ولم يكن من يلتحق بها يعرف شيئاً من استعمال أدوات العمل، أو طرقه، أو استعمال الأدوت الحديثة. وذكر لي أحد الإخوان المقيمين في المنطقة الشرقية أن أحد الإخوان الذين التحقوا بالشركة دخل الحمام، وكان هناك «السيفون» الذي كان يعلق قديماً في أعلى الجدار، وله حبل يجر ليطرد ما في المرحاض، وصادف أن هناك سطلاً من الرخام معلقاً في جانب «السيفون»،

وبه حبل أطول من حبل «السيفون»، فجره هذا، ونزل ما به عليه، فخرج على مجموعته في السكن، ومنظره مضحك، وقد لبس الجبس من رأسه إلى أخمص قدميه، ولم يدر لِمَ انقلب «السيفون» إلى جبس.

موقف آخر له :

وكان هذا الرجل خفيف ظل، و «عَبِثاً»، يده لا تستقر، وتتحرك دون أن يكون بينها وذهنه علاقة، فهي لا تهدأ، ولابد أن تعبث بأي شيء في متناولها، دون إدراك منه لهذا إلا إذا جاءت نتيجة تعيد الصلة بين الذهن وما تفعله اليد.

ذهب هذا مع صديق له ـ راوي هذ الخبر ـ للبصرة في جنوب العراق، وعادة أهل عنيزة عند زيارة البصرة يزورون العم سليمان المحمد الذكير وأخاه حمد في

دكانهما، وهما من أكبر الأسر النجدية الثرية في البصرة، وأغلب الوافدين ينزلون ضيوفاً عندهم، خاصة إذا كانت إقامتهم طويلة للعمل هناك أو للبحث عن عمل، وهؤلاء فقراء وجاؤا يبحثون عن عمل يرتزقون من ورائه، وهم يعملون بالنهار، ويعودون لبيت الذكير لوجبات الأكل والنوم. أما الذين على جناح سفر، أو قادرون، فإنهم يمرون للسلام، ولكن «الأعمام» يصرون على دعوتهم للغداء أو العشاء.

ذهب الرجل (ع. م) مع صديقه (ح. ض) إلى البصرة، ومروا على دكان «العمّين»، ودُعيا على العشاء، أو على القهوة بالليل. فجاء الإثنان على الموعد، وضربا جرس الباب، إيذاناً بوصولهما، وأثناء انتظار فتح الباب أخذ «العَبِثُ» يداعب بإصبعه ثقب المفتاح،

ثم تدريجاً أدخل إصبعه موغلاً داخل الثقب، ولم يتمكن من إخراج إصبعه، وكان الثقب من النوع القديم، ومفتاحه نوعاً ما كبير، وحاول، ومعه زميله، جاهدين التخلص من هذه الورطة، ولكن عبثاً، ولأنهما قد طرقا الباب، ومرّ وقت مكّن من بداخل البيت من المجيء لفتحه، ففتح الباب وتبع «العَبِثُ» الباب داخلاً، وكان منظراً غريباً، فاضطر صاحبه أن يشرح الأمر، وأُخذت الجهود تُبذل لجلب نجار يقوم «بفك الاشتباك»!، ومرّ وقت ليس بالقصير قبل أن يستطيع النجار أن يخرج إصبع الرجل من ثقب المفتاح.

لقد اصطبغت تلك الأمسية بأمرين، أحدهما مضحك والآخر محرج محزن، أما المضحك فهو منظر الرجل مثبتاً بإصبعه بالباب، والناس حوله خلية نحل يحاولون أن

يجدوا طريقاً لإنهاء المشكلة، فهذا يأتي باقتراح وآخر يشير بأمر مختلف، والعمل جار على قدم وساق، أما صاحبنا «العَبِثُ»، فقد تعدّى شعوره بالحرج الحد المؤلم، ودخل في حدود مشاركة الآخرين ضحكهم، وانتهى الأمر بعد أن لم يبق في فترة المساء إلا قليل.

بعد هذه الحالة صار صاحب «العَبِثُ» (ع. م) يصرّ عليه، إذا ما ذهبا لزيارة أحد، أن يقف بعيداً عن أي شيء يمكن أن يكون ليدي صاحبه فرصة عبث؟.

قصة مماثلة:

وهناك قصة لنا فيها موقف محرج حدثت لنا ونحن طلاب في الجامعة في مصر، وهي طريفة للموقف المحرج الذي واكبها، وأبطالها هم: هاشم شقدار، وأيوب صبري، ومصطفى مير - رحمهم الله - وسالم

يا مفلح وأنا.

ولأنها عن فترة إقامتنا في مصر فسوف أبقيها لوقتها، معلقة مما يزيد الشوق إلى رؤيتها مفصلة في مذكراتي عن تلك الحقبة ـ إن شاء الله ـ، إبتعاداً عن إدخال حوادث حقبة في أخرى ما أمكن ذلك، ولن يكون هناك خوف من نسيانها، لذلك أشرت إليها هنا مما يجعل هذه الإشارة وعداً وعهداً.

من وحي الغربة:

جئت قبل هذا بطرف من أخبار من سافروا من عنيزة إلى المنطقة الشرقية للعمل لدى شركة الزيت العربية (أرامكو)، وكان ذلك أول ظهور البترول، واكتشاف مكامنه في تلك المنطقة. ومن المؤكد أن الذين يتركون بلدانهم، وأهلهم، ومرابع الصبا، وملاعب

الطفولة، لابد أن يشتاقوا إليها، ويحنّوا إلى رؤيتها، ويتطلعوا إلى الاجتماع بأهلهم فيها وأحبائهم، والتمتع بالزيارة، وربما الإقدام على الزّواج، أو نقل الأسرة، أو جزء منها، إلى مقر أعمالهم. وقد جاءت نفثة شوق معبّرة على لسان أحد الذين اغتربوا، وابتعدوا عن ديارهم، وفيها تعبير يقارن بين ما هم عليه حينذاك وما كانوا عليه من قبل، وما اجتذبهم إلى هناك، وأبقاهم في ديار الغربة، في تلك المنطقة، مما يوحي بأن بعض من ذهب لا يعود. يقول أحدهم.

يا حمود كل من نشد عنا
قل له: ترانا براس تنوره
ترى البحر قبلة عنا
بدْيَار من تلعب الكوره
وقل له: ترانا تمَدّنا
وكل يولع بدافوره

أشــوف من راح ما ثنَّــى
يذكـــر ورا راس تنـــوره

هذه نظرة إلى من سافر إلى المنطقة الشرقية، أو الظهران، وهناك من سافر إلى وسط نجد حيث تتوافر فرص العمل، بعد أن بدأت واردات البترول تؤثر على الحياة الاقتصادية، وأصبح بالإمكان إقامة بعض المشاريع الزراعية، وكان هناك مجهود بذل في منطقة الخرج، لزيادة غرس النخيل وبعض الأشجار المثمرة الأخرى، واعتنى به الشيخ عبدالله السليمان الحمدان، وزير المالية أيام الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وكان الشيخ عبدالله السليمان يفضل المقام هناك إذا جاء للرياض، وهذا يبعده بعض الشيء عن المراجعين.

وقد جلب الشيخ عبدالله لمشروع الخرج بعض

الفلاحين من نواحي نجد، ومن الحجاز، وبعض من وفد إلى المملكة بعد توحيدها، ومن وجد في خدمة الدولة هناك مجالاً للعيش في الخرج، وقد بعث ابن سليمان بعض هؤلاء إلى «مشروع الخرج». وكانت مكة وجدة، في تلك الأيام، تُفضَّل كثيراً على بلدان نجد، لما فيها من إمكانات الحضارة، ووسائل التقدم، ولما فيها من روح التسامح. وقد عرف بعض أهل نجد، ممن وجد عملاً فيهما، متعة العيش، ولكنهم اضطروا للمجيء للخرج لأنهم في السلك الحكومي ولا خيار لهم، أو أنهم وجدوا إغراءًا مادياً لم يستطيعوا مقاومته. وهذا أحدهم يعبر عمّا دار بخلده من تطلعه للنزوح من الخرج إلى الحجاز، وقد ظهر في الأبيات ملمح من ملامح وسائل النقل الحديثة، ولم يعد للناقة ذكر، وأصبح الذكر للسيارات، وهذه هي الأبيات:

يا ليت من فارق «الخرج»
وأبعد عن «السيح» و«عيونه»
من فوق ما يقطع الهرج
«فرت» يمشّي على هونه
والصبح من قصرنا نمشيَ[1]
والعصر و«السيل» من دونه
لابد الايام تفترج
وكلٌّ يتهنى بمضمونه

دبيب العافية :

مع الإنتعاش الاقتصادي بعد ظهور البترول، تحسنت أحوال الناس، وجرت الدماء في عروق حياتهم ومعيشتهم، وتبين هذا لمن حولهم، والغني الذي زاد غنى لم يلفت النظر، ولم يتجه له الاهتمام. أما الفقير فهو الذي لفت النظر بعد أن انتقل من

(١) خرجت القافية عن قافية بقية الأبيات، وقد تكون في الأصل كلمة أخرى، ولكن هكذا حفظتها.

حال الفقر المدقع إلى حالة من الكفاف المريح. إن ما تبين حينئذ في حياة الفقير من اختلاف جلب النظر، واستدعى الملاحظة. وقد سجل أحدهم هذا التحسن الذي طرأ على حياة شخص يعرفه يدعى «علّوش» فقال في حاله هذه الأبيات:

سبحان ربّ خلق «علوش»
عقب «السواني» له فلاحه
له لحية كنها «البذروش»
وإلا كما «ربذة» «الساحة»

ولا أدري ما هو «البذروش»، ويمكن أن يستدل على شكله من ربذة الساحة، وهي أطراف البساط المنسوج، التي تبقى منسابة بعد نسج البساط. وقد حددت الأبيات الاختلاف الذي لفت نظر صاحب الأبيات عما طرأ على وسائل معيشة «علوش» وعلى

مظهره. ومدى التغير الذي دخل حياة الناس، ويغبط عليه أصحابه، يتبين من البيتين الآيتين:

ربي كريم خلق «منصور»
«منصور» ولد «العديلية»
عقب «المناحي» وكنس الدور
ما يسبح إلا «بصفريه»

لا أدري من هو منصور ـ وقاه الله شر عين صاحب البيتين ـ ولا من هي أسرة والدته المذكورة، والمناحي جمع منحاة، وهو المكان الذي تتردد فيه دواب السواني، التي تمتح الماء لسقي المزارع. أما الصفرية فهي قدر متميز، وهذا يدل على أن الماء أصبح يدفّأ له في الشتاء عند الحاجة، بعد أن كان يسبح في البركة أو «الحابوط» بمائها البارد.

جميل أن تقال أبيات مثل هذه تسجل بعض الحالات،

التي تمر بها المجتمعات، من ركود أو تطور أوجب الوقفة، والنظرة المتأنية المتبصرة. وتُبيّن مثل هذه الأبيات نظرة الناس إلى الأمور، وصورتها في أذهانهم، ومدى قناعتهم أو عدمها، واعتراضهم أو مدى ذهابهم في مجراها، أو قبولهم لها وترحيبهم بها، وتبين ما كانت عليه حياتهم مما كانوا يكتفون به، وهو محل قناعة منهم، ومنبع رضى، ويرونه نعمة فضلى نسبة لما كانوا عليه من شظف العيش، وما نراه في الوقت نفسه مضحكاً، نسبة لما نحن فيه اليوم.

إنشغال ذهنٍ مع البُعد :

وكان الذين يسافرون ويتذكرون من خلفوا خلفهم من أهل وأحبة، لا يفتؤون يسجلون شعورهم في أبيات تنفثها صدورهم، ونتلقفها نحن الصغار من

أفواه من هم أكبر سنّاً منا، نحفظها خطفاً، وأحياناً ما نرويه هو بعضها، وهو يكفي في رأينا. وحفظنا لها آت من كثرة تكرارها، وسماعنا لهذا التكرار، وتثبت في ذاكرتنا نتيجة تكرارنا لها كذلك. وكنت أحفظ بعض هذه الأبيات وأمثالها لسماعي لها من ابن عمتي الأخ صالح الحمد القرعاوي، وهو ممن كانت تسنح له الفرصة للالتقاء بمن هم أكبر منَّا سنّاً، وأحياناً أكبر منه هو سنّاً. وكان ينقل لنا ما يستقر في ذاكرته مما سمعه وأعجبه، وهذه الأبيات تقال عادة بلحن، وكأني أنظر إلى المحيط الذي يتم فيه نقل هذه الحصيلة إلينا، ونحن على سطح بيتنا في الهفوف، وقد استلقى كل واحد منا على ظهره في فراشه، تغازل عيونه بريق النجوم في سماء صافية. ثم ينشد أبو خالد، صالح، الأبيات التي ادّخرها، ونحن نسمع ثم نشارك بعد حين.

ومن هذه الأبيات أبيات تدل على شوق عاشق، يستحضر في ذهنه إما زوجته ويشير إلى بُعده عنها وبقائها عند أهلها لغيابه، أو امرأة كان يعشقها أيام المراهقة، ويتطلع لزيارتها لأهله مع ذويها، دليل الوفاء، وأنه لا يزال في ذهنها، ولعله يأتي بعد ذلك زواج يهنآن به. وها هما البيتان:

تَخَطّيْ يا بعد حيي وميتي

بعد حيي ومِن لي من دِنيّه

لعلك عقب خبري ما نسيتي

تجين لبيتنا يا «الغشمريه»

من هذه الغشمرية؟ هل هو اسم الحبيبة، أو اسم أسرتها؟ أو أنه ألمز بالصفة عن الاسم الصريح، مثلما ألمز رجل آخر لشيء ليس فيه حب، ولا اشتياق، وهذه هي القصة:

قصة العنجليّة :

في الماضي عندما يقعد قوم على مائدة مضيف لهم، يحرص كبير المدعوين على أن يمسكوا عن الطعام في مرحلة يكفي ما بقي منه دفعتين أخريين، فيكف عن الأكل، ويحمد الله، ويشكر المضيف، فيتبعه من كانوا على الطعام.

ثم تأتي دفعة أخرى تأخذ قسطها ثم من بين من حضر من يمسك عن الطعام بعد أن يأخذوا نصف ما تركه السابقون، وتأتي بعد هؤلاء الدفعة الثالثة وهم من عملوا على الطبخ وتقديم الأكل، والقهوة، أي العاملون عليها.

وفي يوم من الأيام نزل ركب على رجل في البادية، وكان عددهم أكثر مما يمكن أن يقدمه لهم، فرحب

بهم، وأكثر من ذلك، فلما أصبح الأكل معداً دعاهم إليه، وقال لهم وهو يرحب بهم:

حياكم الله، فإذا اكتفيتم ففي الشراع الآخر «عنجلية».

فلم يوغل القوم في الطعام الذي أمامهم، ولمسوه لمساً، أملاً في «العنجلية» التي لابد أنها أدسم. كان الوقت شتاءً، وكان البرد قارساً، فلما ذهبوا إلى الشراع الذي أشار إليه المضيف، وجدوا ناراً بطول الشخص، وكانت هذه «العنجلية» التي قصدها الرجل. أليست النار فاكهة الشتاء، فالرجل لم يكذب، وأخرج نفسه بطريقة ذكيّة من الحرج وإشعار الضيوف بقلّة الأكل عنده. أما القوم فلم يكن بإمكان من لم يشبع منهم أن يعود إلى «سفرة» الأكل الأولى، لأن فريقاً آخر قد

قعد وحتى لو لم يقعد أحد ما كان يليق بهم أن يعودوا إليها بعد أن تركوها، ولعل دفء النار عوّض عن دفء الأكل.

علي التميمي وسليمان العليان:

وفي سياق تأثير شركة الزيت في الشباب الذين التحقوا بها في وقت مبكر من المناسب أن أتحدث عن اثنين ممن برزوا عن طريق مرورهما بهذه الشركة.

أذكر سليمان العليان ـ رحمه الله ـ وكأني في حلم عندما تحدث الناس عن سفره من عنيزة، ولعل ذلك قبل بدء شركة الزيت، وغالباً ما يكون سفره في أول الأمر إما إلى الأحساء أو إلى أبي عينين (الجبيل).

أما علي العبدالله التميمي ـ رحمه الله ـ فأعرفه جيداً منذ الصغر، كأنه أمامي الآن، وكان جاراً لنا، يمتاز

بالابتسامة الدائمة، والهندام الجميل، وكان أكبر مني بما يقرب من ثمان سنوات، وكان دائماً عندما يرانا نلعب أمام بيوتنا يداعبنا، وكنا نحبه ونحب أهله. ولبيتهم حوش واسع، وأذكر أن الحصان الوحيد الذي رأيته في عنيزة رأيته خارجاً من حوشهم هذا، حوش عبيدان التميمي، أو كما كنا نسميه بيت «العايد». وكان محمد أخو علي أصغر منه، وكان في سننا، وكنا معه «سمناً وعسلاً»، لم يحدث بيننا وبينه ما يحدث بين من هم في سننا، وهذا يعود لطيبه، وحسن خُلقه. ومثل سليمان العليّان سافر عليٌّ إلى المنطقة الشرقية قبل إنشاء أرامكو، ولكنه مثل سليمان كذلك، التحق بها بعمل أو آخر، وأصبح من كبار رجال الأعمال فيما بعد:

لم أر عليّاً بعد سفره من عنيزة إلا بعد مرور ما يقرب من ثلاثين سنة، رأيته رجلاً طويلاً، وافي الجسم،

وبقيت ابتسامته وحبابته.

أما سليمان العليان فعرفته جيداً ـ رحمه الله ـ بعد أن صار رجل أعمال عالمياً مرموقاً. عرفته في لندن إبان دراستي للدكتوراه، ودامت الصداقة إلى أن توفاه الله. كان يأتي إلى لندن كثيراً في طريقه ذاهباً إلى الولايات المتحدة أو عائداً منها. وكانت تدهشني مقدرته على إدارة أعماله، وكأنه عدة أشخاص لا شخص واحد، وأدهشني كذلك سهولة تحركه في أسفاره ـ رحمه الله.

وعلي وسليمان كان منطلقهما في أعمالهما الحرة الناجحة من عملهما مع شركة الزيت العربية. وقليل ممن عمل بجد مع الشركة لم يبدأ بعمل ناجح، ولعل للتنظيم الإداري السائد في الشركة إلى اليوم ما أفادهم، وصبغ تصرفهم في الحياة بصبغة التنظيم، ومعرفة

قيمة الوقت والمال، ودراسة الأسواق بعقل وبصيرة، سواءً كانت أسواقاً داخلية أو خارجية.

الإنارة في عنيزة :

كانت الإنارة في عنيزة بسيطة، ولقد أدركت زمن الإنارة بالودك بسراج بدائي للغاية، علبة تنك صغيرة ضعف حجم اليد، يخرج منها رقبة صغيرة، يدخل منها إلى مخزن الودك فتيلة قطن، تمتص الودك حتى تتشبع، فإذا أوصل إليها اللهب التهبت بمقدار يسير وأضاءت ما حولها إضاءة ضعيفة، وتستمر إلى أن يُستهلك وقودها هذا. وهي وإن أفادت في هذا الجانب فإنها هزيلة في مقاومتها للهواء، ولابد من وضعها في مكان يحميها منه، وراء جدار أو في دخلة «ذارية»، وإذا مشى بها أحد فلابد من حماية ذبالتها

باليد الأخرى. ومن عيوبها رائحة الودك الذي يصبغ المكان، وهو شيء مزعج حقاً إذا كان المكان مقفلاً.

ثم أدخل تطور على «سُرِيِّج» الودك هذا فبدلاً من وقود الودك أدخل القاز (الكيروسين)، وتحسنت مع هذا الإضاءة إلى حد بسيط، وبقي العيبان الآخران ضعف المقاومة للهواء، والرائحة غير المرحب بها.

هذا السراج يوضع في المساجد وفي «القبب» في الشوارع بتبرع من أهل الخير أو بوصية من متوفًّى. والفقراء ليس لهم إلا هذا النوع من السراج، يبتاعون وقوده كل يوم تقريباً، ويستعملونه في أضيق الحدود، وتقل مؤونتهم من الوقود واستعمال هذه المصابيح أيام «البيْض»، أي الليالي التي يستغنون فيها بنور القمر في سطوحهم وأحوشتهم.

أما في بيوت الأغنياء فهناك نوعان، أحدهما يصنع محلياً، وفيه بعض الفن، فالسراج جهاز مكون من أربع جهات من الزجاج، إحداها تفتح وتقفل، وبداخلها هذا الجهاز جهاز الإضاءة، وهو وعاء مثبت في قاع الصندوق الزجاجي هذا، ويمكن نزعه وملؤه «بالقاز» وإعادته إلى مكانه، وفتيلته راكبة على جهاز فيه مسمار (برغي) يرفعها ويخفضها، ولها منسم من فوق يخرج منه الدخان الذي يتكون من الاحتراق، وللسراج يد في أعلاه يحمل بها، وهو يُعد من السرج المفيدة في إضاءتها، وقوتها، والهواء لا يؤثر فيها، لأنها محميّة بالزجاج من الجهات الأربع، ولها جانب يفتح ويُغلق، مما يريح في أمر تنظيفها وملء خزان الوقود فيها وترفع الفتيلة بسهولة عندما يُراد الإنارة بها وتخفض عندما يُستغنى عنها، وهذا الخفض يغني عن

حرق عود كبريت جديد، وأعواد الكبريت غالية، وكان هذا السراج يسمى «السراج».

والنوع الثاني يأتي من خارج البلاد، وفيه ميزات السراج السابق، وميزات أخرى، وهو آخر الأنواع قبل الأتاريك والكهرباء، ويسمى «فنر».

ومن المناسب أن أذكر أن سراج الودك هذا قديم الاستعمال في البلدان العربية، وكان يُتفنن في صنعه، وأذكر قصة عن البخل سراج الودك هو بطلها، ولعلها وردت في كتاب «البخلاء» للكاتب المبدع المعجب «الجاحظ» ـ رحمه الله ـ، ومؤدّاها أن بخيلاً دخل على آخر، ورأى أمامه سراج ودك، وبعد هنيهة من جلوسهما معاً رأى صاحب الدار أن الفتيلة ضعفت وأن عليه رفعها قليلا فتناول عوداً وأخذ يرفعها به،

فذعر البخيل الزائر وعَد هذا إسرافاً وخَرَقاً، وإهداراً للودك لا داعي له، وأبدى ملاحظته لمضيفه، فقال له المضيف وأنت ماذا تفعل في مثل هذه الحالة؟ قال أخرجها بالإبرة، فالإبرة لا تشرب الزيت أو الدهن، أما العود فيفعل ذلك!!

وهناك نوع من وسائل الإضاءة، وهو «القُمرِيَّة» (جمعها قمريات). وقد رأيت واحدة منها، ورأيتها مضاءة مرة أو مرتين[1]، ولعلها بعد ذلك خربت، لأني لم أرها مضاءة بعد ذلك. ويبدو أن الجهاز الآلي الذي يموّن اللهب بالأكسوجين، ليأتي بهواء لطيف من مروحة موضوعة فيه وضعاً فنياً، قد خرب. وهذا الجهاز يجعل نور القمرية أبيضَ صافياً، وأقرب إلى نور

---

(١) رأيتها في روشن أم أخي محمد ـ رحمها الله ـ وقد دفعها الوالد لها مع جهازها عند زواجه منها.

القمر، ولعل اسم هذا السراج جاء عن هذا الطريق. وقد رأيتها بعد ذلك في مكة، ونورها زئبقي وأقرب شبه «بالنيون» (الإضاءة الحديثة)، ثم رأيتها تأخذ طريقها إلى التقاعد.

العسل:

ومن الأمور التي أقف محتاراً أمامها تربية النحل، فعنيزة، ومدن القصيم مثلها، تتوافر بها أشجار النخيل وبعض أشجار الفاكهة بأعداد كبيرة، وفيها القمح والشعير والذرة وفيها البرسيم، وأعلاف أخرى، وفي كل هذه زهور يمكن أن يقتات عليها النحل. والنحل لا يكلف صاحب المزرعة مالاً ولا مجهوداً، ومع هذا لم نر العسل إلا عندما انتقلنا إلى مكة ـ شرفها الله ـ وكأننا نعرفه

من قبل لقرابته مع الدبس الذي كان من أحب الأطعمة إلينا لأنه قطعة حلوى صافية، والأطفال مغرمون بالأشياء الحلوة.

والعسل، مع قلة مؤونته، كله فوائد، ومن هذه الفوائد أنه دواء ناجع لكثير من الأدواء، وورده في القرآن في هذا النطاق يفسح له مكاناً في النفوس. وشمع العسل كان يمكن أن يفيد في الإضاءة بدلاً من الودك، ويأتي بإنارة صافية ورائحة زكية.

ويأتي أمر عدم الاهتمام به أمراً محيراً، خاصة وأن عدداً لا يحصى من أهل عنيزة سافروا خارج الجزيرة ورأوا فائدته، مع قلة المجهود الذي يمكن أن يبذل في تربية النحل والعناية به، والتجارة فيه كذلك. وقد أبعدت الرحلات بأهل عنيزة إلى الهند، وكان بإمكان

التجار الذين يواصلون الذهاب إلى البصرة في العراق أن يجلبوا النحل كما جلبوا نخلة «البرحي»، وأتصور أن مجهود نقل عدد من خلايا النحل، أقل عناء من نقل فسائل النخيل.

البطاطس :

وليس هذا هو الأمر الوحيد الذي يحيّرني اليوم، مما لا أجد له تفسيراً، ولكن هناك أمر آخر وهو عدم جلب البطاطس لعنيزة وزراعته فيها، مع فائدته وضمان إنتاجه، فإذا قيل إنه يحتاج إلى ماء كثير، ففي بعض مزارع عنيزة من الماء ما يكفي، ويمكن أن يزرع على ضفاف الأحواض، وعلى جوانب السواقي، وقد رأيت زراعته في انجلترا في حدائق البيوت، وفي أماكن منها لا تخطر على البال، وما يزرع في حدائق البيوت له نكهة

خاصة، مع اعتزاز وفخر يراه الناظر في عيون ربة البيت، وهي تقدمه على المائدة بزهو بالغ، وفرح طاغ.

يبدو أن هذه الأمور تحتاج إلى قوة إرادة، وحسن تفكير وتبصر من بعض الأفراد، وقد توافرت هذه الفضائل فيمن جلب نخلة «البرحية»، وكانت مصدر بركة للمزارعين، ففسائلها تسبق في النفع تمرها.

إتريك محمد الأحمد الذكير:

هذا الموضوع يدخل في باب الإنارة في عنيزة، ومحمد الأحمد الذكير ـ رحمه الله ـ كان يحرص على صيام رمضان في عنيزة عندما يدركه الوقت في البصرة، وكان أغلب وقته هناك. وفي إحدى السنوات ولعل هذا في حدود سنة ١٣٥١هـ أو

التي بعدها، جاء من البصرة ومعه سراج غريب على عنيزة، سراج نوره ساطع يجعل الليل نهاراً، جاء «بإتريك»، وهو سراج لم نره في حياتنا، ولم نكن نظن أنه يوجد شيء مثل هذا ينافس الشمس، ولم يكن بيته بعيداً عن مسجدنا، مسجد «الهفوف»، فصار يأتي به عند أذان العشاء للمسجد، ليقرأ عليه الإمام في صلاة التراويح.

كان إمام مسجدنا الشيخ صالح الدامغ، رحمه الله، وكان في كل سنة يقرأ على «الفنر»، وكان ابنه الاستاذ عبدالعزيز في المدينة المنورة حسب ما فهمت، وعاد في ذلك العام. والشيخ صالح كان عنده كتَّاب تحت منارة الجامع يدرّس الصغار القرآن، فلما عاد ابنه فتح كُتَّاباً. وكان كتَّابه من أبرز الكتاتيب، والتحق به

صبيان ممن لم يدرسوا من قبل، أو درسوا في كتاتيب أخرى.

بعد عودة الأستاذ عبدالعزيز من المدينة، ونيابته عن والده في صلاة التراويح، استمتع المصلون بصوته الجميل مما جعل كثيرين ممن كانوا يصلون في المساجد الأخرى يتركون مساجدهم ويصلون معه في مسجد «الهفوف»، فامتاز مسجد «الهفوف» في هذا العام بإمام شاب حسن الصوت، وإنارة مدهشة كانت حديث المدينة كلها، وكان بعض الناس يأتون ليروا هذا السراج العجيب.

أما نحن الصغار فقد استولى علينا هذا الوافد الجديد، فصرنا نذهب إلى البيت الذي يقيم فيه محمد الأحمد الذكير ـ رحمه الله ـ بعد الإفطار، ونقف بانتظار

خروجه ومعه «الإتريك»، وأعيننا لا تغمض عنه، ونتزاحم لنقترب منه، ونرى دقائقه وجلائله لنعرف مصدر الفحيح الذي يصدر منه، ولنرى هذه الفتيلة الشفافة المتدلية إلى أسفل بدلاً من ارتفاعها من الأسفل إلى الأعلى كما هو معتاد في السرج الأخرى، وكنا نحرص على أن نكون قريبين في الصلاة من «الأتريك»، ولكن هذا يوجد لنا مشكلة، لأنه يسبقنا كبار السن إلى الصف الأول لأننا تأخرنا لنأتي مع «الإتريك» وحامل «الإتريك»، ويجرؤ بعضنا فيحاول أن يدخل بين اثنين من الكبار، ولكنه في الغالب يُصدّ عن ذلك بعنف، وهو منظر الآن يذكّرني بموقف حدث في مكة ليس من شاب من سننا ولكنه جاء من قط:

قدم صحن الأكل وكان ما فيه حارّاً وبخاره فوقه

يكاد يغطيه، وكان من حولَهُ في انتظار أن يبرد قليلاً، ودخل قط بين اثنين من الجلوس وأخذ يدنو قليلاً قليلاً من الصحن، ثم تشجع ووضع يده على حافة الصحن، ومد عنقه ليأخذ أقرب قطعة لحم تليه، فاغتاظ الجالس قربه، وأطبق على عنق القط من الخلف، وغمس وجهه في الصحن، فأخذ القط يرفس بقدميه، المطلقتين، من الحرارة، ويعطس بتوال، فأثار هذا ضحك المتحلقين حول الصحن، ولكنه كذلك أثار اشمئزازهم، لأن عطاسه لابد أنه رش شيئاً مما في أنفه على الطعام. وهذا جعلهم يحجمون عن أكل ما في الصحن إلا الرجل الذي تسبب في كل هذا، فقد تغاضى عما اشمأز منه الآخرون، وانقضّ على اللحم وما حوله.

كلمة عن المساجد وفرشها :

لم تكن المساجد في زمننا تُفرش بالسجاد ولا «بالسياح» ولا «بالمداد» ولا بالخصف، وإنما تفرش «بالسهلة» (الرمل الأحمر)، يؤتى به من «النِّفد» (جمع نفود)، وهي دعوس الرمل خارج المدينة، والدعوس هذه أو الكثبان تكاد تحيط بعنيزة إحاطة السوار بالمعصم، ويُجَدَّد الرمل بين آن وآخر متى ما ظهر عليه القدم، وكنا نرى بعض الناس قد نسي بعد خروجه من المسجد أن يزيل الرمل عن جبهته وأرنبة أنفه.

أعود إلى أتريك محمد الأحمد الذكير ـ رحمه الله ـ فإنه إذا انتهت صلاة التراويح حمل الإتريك وعاد به إلى بيته، ونحن معه «دَجْلة» (جمهرة) نمشي خلفه وكأننا في مظاهرة، فإذا دخل بيته، وأقفل الباب، عشيت عيوننا،

ولم نعد نرى شيئاً بعد النور الساطع، وأصبحنا في هرج ومرج، إلى أن تبدأ عدسة العين تأخذ وضعها الطبعي.

محمد الأحمد الذكير - رحمه الله - عندما يأتي لعنيزة من البصرة يأتي معه ابنه عبدالرحمن - رحمه الله -، وكان يقيم معه في البصرة، وكان يكبرني بسنة أو سنتين، وصادق شاباً جاراً لنا اسمه سالم العنزي، فكان يأتي لزيارته فنراه، وبدأت المعرفة به منذ ذلك اليوم، ولهذا عندما جاءنا في دار البعثة في مصر فرحت بتجديد العهد به.

وقد التحق - رحمه الله - بكلية التجارة في جامعة الملك فؤاد في القاهرة، وكان يسكن في البعثة بغرفة مع معالي الأخ عبدالرحمن أبا الخيل، وبعد تخرجه،

وعودته للمملكة، عمل في وزارة التجارة حتى وصل إلى مدير عام، وقد انتقل إلى رحمة الله صغيراً.

الوضع الصحي:

كان الوضع الصحي في ذلك الوقت متردّياً، فلا أطباء في عنيزة إلا أطباء شعبيين، خير ما عندهم الكوي، وهناك عطار واحد اسمه ناصر العاروك، صاحب دكان في سوق «الهفوف»، يبيع الأدوية والمساحيق المتعارف عليها، ومنها المر والحلتيت والصبر والعشرق، وما إليها مما يصفها أو يبيعها حسب طلب المريض أو من ينوب عنه. وقد يكون فيما يتناول منها من الضرر ما يتعدى شكوى المريض الأصلية.

وكانت الأوبئة مثل الجدري والحصبة، والملاريا تحصد الصغار والكبار، ولا يكاد يسلم منها بيت إذا

حلَّت. وقد حصدت الانفلونزا الحادة التي جاءت في عام ١٣٣٧ هجرية خلقاً كثيراً، فكان الناس في أول الأمر يدفنون الموتى فرداً فرداً كل واحد في قبر، ثم صاروا يدفنونهم في خندق، ثم شح المشيِّعون من كثرة من مات من الشباب والرجال والنساء، وخلت البيوت من الرجال الذين يمكن أن يستنجدوا بآخرين لتشييع ميت عندهم، فصارت النساء يضعن «غدفة» (غطاء رأس المرأة)، خارج الباب، وأصبحت هذه علامة على أن في البيت ميتاً رجلاً أو امرأة. ويروى أن أمير عنيزة توفي له طفل فذهب به وحده للمقبرة وحفر قبره بنفسه، وأضجعه فيه ودفنه.

وقد فني بعض من هم في سن الزواج من الذكور والإناث، فصار الخاطب يذهب إلى القرى يبحث عن زوجة، وبعض أبناء القرى دخلوا المدن لمثل هذا

الغرض، وهذه ربما كانت من أسباب تداخل الأسر بين المدن.

وقد تأكد أنها ليست كوليرا لأنه ليس معها قيء ولا إسهال، وإنما حرارة متناهية، وصداع، وقد توفيت والدة الملك خالد والأمير تركي بن عبدالعزيز الأول ـ رحمهم الله ـ بهذا المرض، ويقول الملك خالد ـ رحمه الله ـ أن الحرارة كانت ترتفع وتبقى ثلاثة أيام، مع صداع مجلجل، فإذا نزلت الحرارة بعد اليوم الثالث نجا المريض ـ بإذن الله[1] ـ. ولم يكن هناك وسائل لتخفيف الحرارة، ولهذا كانت، بإذن الله، تقضي على كثير ممن أصيب بهذا الداء، وربما أنه من نوع «الأسيوية» التي وصلت من شرق آسيا، واجتاحت عدداً من البلدان، ولكنها من حسن الحظ، على شدّتها، وعلى كثرة من

---

(١) سماها الزركلي : الأسبانية.

تأذى منها، جاءت في وقت تقدّم فيه الوعي الطبي. فقد يكون «فايروس» هذه الأنفلونزا (الأسبانية) جاء مع أحد القادمين للحج، فانتشر أول ما انتشر هناك، ثم حمله الحجاج السعوديون لمناطق المملكة المختلفة.

وفي الأيام المعتادة، وعندما لا يكون هناك وباء مكتسح، كان موت الأطفال كثيراً، وأغلبهم يموت في الأشهر الأولى من الولادة، ولا أحد حينئذ يعرف أن هذا بإذن الله من عدم النظافة. كانت المراحيض بدائية، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فتمسك الأم ثديها ويدها ملوثة، فتلقمه لطفلها ومعه الجراثيم بأنواعها، فيصاب الطفل بإسهال يستمر معه فيجف جسمه ويموت.

وأعرف أناساً وُلد لهم ما لا يقل عن عشرة أطفال،

ولم يبق إلا واحد أو اثنان.

والصحة لا تُراعى، ولا يلتفت إليها إلا بعد أن يمرض الشخص، وحينئذ يبحث عن دواء، ولا دواء إلا ما هو متعارف عليه مما هو مبني على الجهل.

وعندما يُفطم الطفل الذي نجاه الله من مكامن الخلل الأولى تبدأ والدته بإعطائه بعض الأطعمة الليّنة مثل التمر، فإذا كان «يبيساً» قاسياً بعض الشيء علكته له حتى يكون عصارة، ثم ألقمته إياه كما يلقم العصفور فرخه، فتنتقل الجراثيم منها، وهي صاحبة مناعة، إلى الطفل وهو خلو من ذلك. وقد تكون مصابة بالسل، فيمرض الطفل ويموت.

هذه إحدى طرق انتقال الجراثيم والعدوى من الأم إلى ابنها، وهناك طرق أخرى لنقل الجراثيم من

فرد إلى آخر في أسرة واحدة، ويتم ذلك عندما تقوم إحدى السيدات بنفخ «الصميل» وهو قربة خض اللبن، فتنتقل الجراثيم إلى اللبن، وهو خير مُربٍّ للجراثيم وموصل لها. ولا أحد فكّر أو تنبه أو شك أن في هذا العمل خطراً كبيراً. وعمتي ـ رحمها الله ـ كانت كما يبدو مصابة بتدرّن رئوي، وسعالها يكاد لا ينقطع ونفخ الصميل والخض هو عملها الرئيس.

لا تشرب من إناء شرب منه غيرك:

وجهني عمي إبراهيم ـ رحمه الله ـ أن أذهب إلى دكان «أبو غنام»، على رأس شارعنا، ومعي «فرخ» ورق ليكتب لي أحد الذين اعتادوا الجلوس عنده في العصر، وممن عرف بحسن خطه، وهو أقرب إلى أن يكون طالب علم. والهدف أن يكتب لي في أعلى «الفرخ»

سطراً أكتب أسطراً تحته تِباعاً ليتحسن خطي.

فذهبت إلى هناك، وشرحت للرجل ما أريد منه، فالتفت إلى عبدالله الغنام، صاحب الدكان، وقال: أعطني دفتراً (كراساً) اتّكئ عليه في الكتابة، فأعطاه دفتراً من دفاتر المدارس التي تخصّص ببيعها. كانت هذه الدفاتر تحمل على ظهر الغلاف الخلفي إرشادات صحيّة مطبوعة هناك مادة مادة، وكان من جملتها مادة تقول:

لا تشرب من إناء شرب منه غيرك.

فتجهم وجه الرجل عندما قرأها، وقال ـ رحمه الله:

حتى لو كان من شرب أحد والديه؟!

يا أخ عبدالله، هل عندك غير هذا الدفتر يحمل مثل هذه النصيحة الخاطئة؟

قال أبو غنام: نعم، عندي ما لا يقل عن درزن.

قال له: هاتها.

فأحضر أبو غنام الدفاتر كلها، فشمر عن ساعده ـ رحمه الله ـ وشطب هذه الجملة من كل الدفاتر. ثم ظهر على وجهه الارتياح من هذا الإنجاز الذي أرجو أن يثيبه الله على نيته فيه وقصده منه لا على فعله.

لم يُبد أبو غنّام اعتراضاً، ولا رأى في ذلك خطأ، وقد يكون حمد الله أن جاءت هذه الصدفة وصححت خطأً كان سوف يكون هو السبب في تعميمه، ولا أستبعد أني كنت شريكاً صامتاً معهما في استحسان ما تم!!

الجدري والحصبة:

هذان وباءان كانا يضربان نجداً بين وقت وآخر، وعندما يحلّان يكون ضحاياهما الصغار بنين وبنات،

والناس في تلك الأيام، في هذه البقعة من العالم، لا يعرفون التطعيم، ولا يدرون أن هناك تطعيماً يساعد ـ بإذن الله ـ على تفادي الإصابة بالحصبة أو الجدري.

كانت الحصبة تحصد الصغار حصداً، وإذا دخلت بيتاً عمّت من فيه من الصغار، ومن فيه من الكبار الذين لم يسبق لهم أن أصيبوا بها، فإذا زارت بيتاً فإنها ضيف ثقيل، هذا إذا برئ من شدة حمّاها المريض، وقد تخرج من البيت ومعها جنازة أو جنائز. ومن مرّت به ونجا فإنه يصبح آمناً منها، ويعطيه الله مناعة، فلا تعود له.

والجدري وباء مثل الحصبة إذا جاء يعم، فإذا دخل بيتاً عدل بين صغاره بالإصابة، وبمن لم يسبق أن أصيب به من الكبار. وهو حبيبات صغيرة شفافة

مثل حب اللؤلؤ تنتشر على الجلد ويصبح منظر الوجه عند الإصابة بهذا الوباء مرعباً، وقد يترك بعد الشفاء منه ندوباً تشوه الوجه، وتؤثر على جمال الفتيات، وقد يترك المصاب أعمى، أو فاقد عين واحدة. ورغم هذا فالموتى به أقل من الموتى بالحصبة.

وقد أُصبت مع بعض إخواني وأقربائي بهذا الوباء، ولا أزال أتصور رُقودنا في صف واحد، كأننا جنائز، في صفة «الرحى»، وقد حرص أهلنا على أن نكون فيها لأن النور فيها ضعيف، وعيوننا حينئذ لا تتحمل قوة النور. وإذا لم تخنّي الذاكرة فإن الحرارة مع الجدري أقل منها بكثير مع الحصبة، التي قد يكون الموت فيها بسبب شدة الحرارة ـ بإذن الله.

وحسب المتعارف عليه فالجدري الذي يترك ندوباً

عميقة هو ذلك الذي يحكّه الصبي بظفره، وليس كل واحد يستطيع أن يقاوم الحكة، ولهذا يلجأ أهل المريض إلى وضع قفازات في الأيدي سميكة أملاً في أن يكون الحك سطحياً، وليس مثل الظفر.

وأذكر جيداً، عندما أصبت بالجدري كانت والدتي ـ أوسع الله لها في جناته ـ تقول لي دائماً:

لا تحك، يا ولدي، حتى لا تصير «أخرشاً» يعني ذا وجه مغطى بالندوب. فأردّ عليها قائلاً:

أنا لا أحك، أنا أملثه تمليثاً، (أي أملسه تمليساً)، وكنت صغيراً حينئذ، ولم أتخلص بعدُ من اللثغة، التي تصاحب الطفل في صغره.

وكان معي في الصفّة التي تمرّضنا فيها ابن عمتي صالح الحمد القرعاوي وأخي حمد وصالح الإبراهيم

ابن عمي. وأكثر من أثّر فيه الجدري، وترك ندوباً في وجهه الأخ صالح الحمد، وقد يكون سبب ذلك أنه أول من أصيب به من أهل بيتنا، أو أنه كان يتغافل عمتي والدته فيحكه حكاً متتالياً عميقاً. ويبدو أن الجدري، مثل الحصبة، في أول انبجاسه يكون عنيفاً، ثم يضعف «الفايروس» تدريجاً حتى يصبح من الضعف بحيث يدخل مرحلة الاختفاء.

الأعراب والجدري:

البادية أشد من الحاضرة في كره الجدري، يصيبهم الرعب حقاً عندما يسمعون عنه، ويتجنبون البلدة التي فشا فيها، ويتنازلون عن حاجتهم إذا كانت فيها مهما كان قربها منهم، ويذهبون براحة بال إلى ما هو أبعد منها، وهم لا يلامون في هذا، ولو قدر الحضر

على فعلٍ مثل فعلهم لما تأخروا عن الإقدام عليه.

وكان بين سكان الحضر والبادية عداء متأصل في الأزمان الماضية، رغم أن بعض البلدان غالب من فيها من السكان من سلالة بدوية، وهذا العداء جاء من قطع بعض رجال البادية للطرق، نتيجة ما كان يمرّ بهم من قحط وجدب، يجبرهم من أجل المعيشة على ارتكاب مثل هذا العمل الذي زرع بغضهم في قلوب أهل الحاضرة، خاصة التجار والمزارعين، التجار لقطع الطريق عليهم، والمزارعون لكثرة هجماتهم عليهم أيام الحروب والمناوشات على مزارعهم، لأنها خارج أسوار البلدان.

وهذا أمر اختفى الآن بعد أن زالت أسبابه، وأصبح رجال القبائل في حال من اليسر، ومن ليس كذلك فله

مثيل من رجال الحاضرة، والغنى والفقر ليس وقفاً على أحد من الناس.

هذا العداء الذي كان قائماً في تلك الأيام جعل الحاضرة يحاولون الابتعاد عن رجال البادية، وإبعادهم عنهم إذا سافروا، وكانت خير وسيلة لذلك هي الادّعاء أن معهم شخصاً مصاباً بالجدري، وفي هذا ضمان للنتيجة المتوخاة. وقد بطلت هذه الحيلة بعد أن عمّت الوسائل الصحيّة البادية والحاضرة أيام الملك عبدالعزيز، وصار هناك تطعيم ضد الجدري، فلم يعد ذكره يرعب أحداً، وكان الجدري في طريقه إلى التلاشي، آخذاً في الانقطاع، والاختفاء.

حاول ركاب سيارة قادمة من مكة وقاصدة الرياض أن يخوفوا أحد رجال البادية، كنا قد وقفنا ظهراً

لتناول الغداء في «ركبة»، فأقبل أعرابي، يريد أن يكسر وحدته في الصحراء، ويأنس بعض الوقت معنا، فأراد بعض المؤذين من بيننا أن يهزأ منه، وأن يستفيد مما كان يسمعه من نفور الأعراب من الجدري، فأبعد بعض الشيء، واضطجع في طريق الأعرابي إلينا، وألقى على نفسه غطاءًا، متظاهراً بالمرض.

بعد أن استقر الأعرابي في مكانه عندنا التفت إلى الجهة التي نام فيها صاحبنا، وسأل عنه وعمّا به، فقيل له إنه مجدور، فبدت على وجهه الدهشة، وقال: ألم يرسل لكم ابن سعود من يتيّنكم عن الجدري، لقد تيّنا «بقزيّزات» أتى بها مندوب منه، وبهذا توهّم الأعرابي أن الأعراب في هذا سبقوا الحضر، وبهذا بطل سحر الساحر. وهذا اضطر صاحبنا أن يبقى تحت دثاره طوال الوقت، ولم يكن وقتاً قصيراً، فقد

بقي الأعرابي حتى أكل بعد أن انتهى طبخ الأكل، وصار الرجحان مع الأعرابي، ومريضنا عانى من بقائه بحالته التي يرثى له فيها، ولم يجد من الطعام إلا ما بقي في قاع القدر!!

وهكذا يعود سهم صاحب النيّة السيئة عليه، ويحمي الله الغافل. ما ضرّنا لو رحبنا بالأعرابي، وأفسحنا له في المكان، كما اقترح بعضنا، ولكن أراد الله ـ سبحانه ـ أن يكون الأمر بهذه الصورة حتى أرويه هنا، ولو مرّ الأمر طبعياً لما جاء له ذكر هنا.

وكنت أنا واثنان من الفريق نتمتع بمنظر الإخوة الذين ضاقوا ذرعاً بالأعرابي طوال وقت جلوسه وكأنه قاعد على قلوبهم. أما هو فلعله لم يتنبّه لحال الضيق التي كانوا عليها، أو لعله تنبّه لها ولكن لم يهمّه الأمر وأظهر كأنه لا يدري.

ولأن الأمراض قديمة قدم الإنسان على الأرض، فالعلاج لها كان بدائياً، ولم يكن للأمراض التي تفتك بالناس إلا بعض عقاقير تكاد توصف لكل مرض، ومن هذه الأدوية: «المرّ» و «الحلتيت» و «الصبر»، والكوي بالنار، وتجبير الكسور الذي يتم أحياناً خطأ، وقد يبقى العضو مختلّاً طوال عمر الإنسان، و «السنا مكي» لتليين البطن، أو للإسهال لمن أقلقه القبض.

وهذه العقاقير قد لا تنفع أحياناً وقد تضرّ، وقد تؤدي إلى الموت أحياناً، خاصة إذا أعطيت للإطفال أو الشيوخ أو العجائز «لرهافة» أجسامهم، وتدنّي المناعة عندهم. وأذكر أن هناك عشبة كانت تسمى «العِشْرِق» تُعطى للمريض عند اليأس من حالته، وكثيراً ما كان يتبع أخذها الموتُ. فإذا قالوا: «شرب فلان العشرق» قال السامعون: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن الأدواء التي تصيب الناس، خاصة كبار السن، ما يسمى «بالعنكبوت»، وهي آفة تبدأ بتشنّج كفّ اليد، ثم يخرج فيها بعض القروح، وليس لها دواء إلا الكي، وقد ذكرت أن جدتي لأبي - رحمها الله - نورة، أصيبت بها وكُويت لها اليد[1].

وقد أصابت هذه الآفة إحدى قريباتي كذلك، ولا أدري هل كويت أم لا، ولكني أذكر شيئاً مزعجاً ومؤلماً، وهو أن الطبيب الشعبي الذي لجؤا إليه لعلاجها قال لهم: اكشفوا يدها للذباب ودعوه يمتص منها قيحها، فهذا سوف يجفف الجرح. هذا يعطي فكرة عن مدى الجهل بالأمور الصحية الناجحة، فليس أبشع منظراً أو مخبراً من منظر الذباب على الجراح، وأعان الله من يقع على عينه هذا الذباب فيما بعد!.

(١) انظر: «وسم على أديم الزمن» ١/ ١٨٨.

الحليّ :

الحلي وسائل زينة لا أظن أن أحداً حدّد متى بدأت تكون كذلك. ولكن الحفريات الأثرية دلّت على أنها قديمة، وأنها تنوّعت، وخضعت لما هو متوافر من مواد ثمينة في بيئة من البيئات، فمنها ما هو مهذّب من الأحجار، ومنها ما هو من الصّفر، ومنها ما هو من النيكل، ومنها ما هو من النحاس، ومنها ما هو من الحديد. والفضة والذهب كان لهما مكان دافئ بين الحلي والزينة، وتلي ذلك، أو تسبقه الجواهر واللآلئ، وما يتعدد من الأحجار الكريمة، نوعا وحجماً وتهذيباً ومظهراً.

ويبدو أنها في زمن من الأزمان كان يشترك في اقتنائها والتحلّي بها الرجال والنساء، ولا يزال في بعض

المجتمعات البدائية رجال يُرون في صور السياحة متحلين ببعض ما هو منتقد في البلدان الراقية، ويلفت هذا النظر ويرسم على الوجوه ابتسامات استغراب أو هزء في بعض الأحيان.

وفي بقايا عادات قديمة وراءها تعليلات مختلفة تأتي الخواتم و «الدبل» على أصابع الرجال، وبعضها يصل إلى أغلى الأثمان ليس فقط لأنها من الفضّة أو الذهب؛ ولكن لما يوضع فيها من «فصّ» ثمين، أو عدد كثير من الجواهر والفصوص، ولها لمعة تنادي طالبة من يراها. وأذكر أني قرأت في أحد الكتب التي أُلِّفت في العصر العباسي أن بعض الرجال يلبسها، ويكون فيها ثمن كفنه وتجهيزه فيما لو مات في بلد بعيد!.

أما نصير الحلي والمجوهرات فهنّ النساء، فالحلي

تلعب دوراً في حياتهن بارزاً ومؤثراً، لدلالة عمق حب من يهديهن الحلي، أو يتيح لهن شراء ما ترنو إلى اقتنائه عيونهن، وليس الثمن وارتفاعه هو الأمر الذي يأخذ بلب المرأة، ولكن الجمال الذي يضفيه إلى ما حباهن الله به من جمال، أو يعوض به من لم ينعم الله بالجمال عليها منهن، ومثلما تحرص المرأة على زيادة الألوان والصبغات على وجهها إذا تقدمت في السن، يرتفع ثمن ما تقتنيه من المجوهرات إذا تمكنت من ذلك.

وفي الزمن الذي أتحدّث عنه كان الرجال يلبسون «المحبس» وهو خاتم في الغالب كتب على «فصّه» اسم الشخص، ولقلة المتعلمين في ذلك الزمن، يقوم هذا الخاتم مقام التوقيع، ولا يلبس الرجال غيره، وقد يُلبس للزينة.

أما النساء في عنيزة فالحلية لا تفارقهن إلا إذا لم يستطعن توفير ثمنها. والطفلة عند الولادة أحياناً تحظى ببعض الحليّ مما يتناسب مع سنّها بعد سنة أو سنتين. والمرأة عادة تلبس خاتماً أو أكثر، وصفته أنه يكون غالباً من الذهب، وبه «شرقيّة» (فص) خضراء، لا تخلو من بعض العروق الرفيعة السوداء. وهذه الفصوص هي الغالبة في الخواتم وغيرها، ولاشك أنها من الأحجار الكريمة. ولأن الذهب هو الغالب فالتعبير عن الحلية يؤخذ من هذه الكلمة، فيقال مثلاً: فلانة اضطرت إلى رهن ذهبها أو أعارت ذهبها، أو أضافت إلى ذهبها.

وتحتل الحلية مكاناً بارزاً في جهاز العروس (المهر) وتكون هي الأساس، وما يتبع معها فروع مكملة. ويتوقف كمال الجهاز من الذهب على قدرة العريس

ومستواه الاجتماعي ومستوى خطيبته، فقد يُكتفى بالخواتم و «المجاول» و «الرشرش» و «الزنود» و «الحجول» أو بعضها، وقد تُكمّل «بالهامة» وهذه هي قمة الحلي.

أ. الهَامَة :

الهامة في اللغة رأس كل شيء (جمعه هامٌ)، وهو رئيس القوم، وفي الحلي في عنيزة هي حلية مهمة وغالية وكبيرة، وتوضع على الرأس، واسمها من موقعها. وهي أكبر قطعة في الحلي، ومقتنوها في عنيزة قليلون، ومحصورون في الأسر الغنية، وكثيراً ما تستعار لوقت محدد في الزواج، ربما ليومين أو ثلاثة، ثم تُعاد لأصحابها.

والهامة قطعة جلد، يكسى ويرصّع ببعض الفصوص (الشرقي) المحاط من أسفله وجوانبه بالذهب، وترصّ

هذه، وهي بحجم الجنيه الذهب بطريقة منظّمة، ربما يصل عددها عشراً، كما أتصور الآن، وقد تصل إلى خمسة عشر. تثبت الهامة على الرأس عن طريق إدخال خصيلات من الشعر في حلقات على أطراف الهامة. وأحياناً ينزل منها فروع مع كل «جديلة» بمقدار عشر بوصات، فيها من الذهب والفصوص ما يقل حجمه عما في الهامة.

يسبق تثبيت الهامة على الرأس غسل الشعر جيداً، ووضع مسحوق الورد المبلل جيداً بالماء والعطر، ويشار إلى من وضعت برأسها هذا المسحوق بأنها «ماشطة بالوردة»، وخلافها من تمشط بالحنّاء. والمَشْط بالحناء يلجأ إليه في الأيام المعتادة «لتطرية» الشعر وتلوينه إذا كان قد غزاه الشيب، ولابد بعد غسل الشعر من مشطه بالحناء أو الوردة.

و «الهامة» لا تتعدى هامة الرأس، وهناك ما ينزل منها كما قلنا على الجدايل، ويبدو أن الجبهة أغرت بأن يوضع في فراغها ما يغطيه، فَهُيِّئ لذلك ما يسمى «بالحلقة»، وأطرافها تثبت بالهامة وباقيها يتدلى على الجبهة، وهي مكونة من حلقات من الذهب، والأحجار الكريمة (الشرقي).

ولو كنت أعرف في تلك الأيام أنه سوف يأتي يوم أكتب عن هذه الحلي وأصفها لأمعنت النظر ولأكثرت من الأسئلة عنها ممن هو خبير بها. ليس هذا هو الأمر الوحيد الذي أتمنى[1] اليوم أني تحققت منه، وسجلته، ولكن هناك أشياء كثيرة قد يمر علينا بعضها في هذه المذكرات، وهي لا تزيد عن صورة هيكل عظمي في

---

(١) التمني يأتي مسبوقاً بكلمة «ليت»، وأحباؤنا في مكة يقولون: لو زرعنا «لو» في وادي «عسى» طلع لنا «يا ليت» الزراع «لكن»!!.

ذهني الآن، وقد يكون مع هذا الهيكل أحياناً نسيج شفاف باهت أرجو أن يقبل بحالته هذه مادام لم يوجد ما هو أكثر تفصيلاً وبياناً.

ب ـ الخماخم:

مفردها «خمخمة»، وهي الأقراط التي توضع في الأذنين، وهي إما صغيرة لاصقة في ثقب يثقب في الأذن لهذا الغرض، أو طويلة متدلية، وهي تشبه في حالتيها ما نراه الآن.

وخرم الأذن ثقبها أو خرقها أو خزمها يكون في مكان فوق شحمة الأذن ويُخرق بإبرة تكون متينة بعض الشيء ثم يُدخل في الخرم عود قرنفل يبقى في الثقب يومين أو ثلاثة، حتى يضمن أن لا يلتئم الثقب فيفسد، وهذا يضيع الهدف، والجرح مع وجود عود

القرنفل تلتئم جوانبه دون التصاقها مع ما يقابلها. والتخريم يتم والطفلة في صغرها، ليكون معدّاً عندما تكبر وتحتاج إليه لحليتها. وقد أراح الله اليوم البنات من هذا الثقب وما فيه من ألم، فالأقراط اليوم لها «مسّاكات» تؤدّي الهدف، و «يُتفنن» فيها بحيث تكون حليةً في حد ذاتها، وجزءًا من «الخمخمة». و «الخماخم» (الأقراط) عادة تصنع من الذهب.

جـ- الخواتم:

الخواتم من الحلي التي تتمتع بلبسها البنت منذ صغرها، وكانوا أحياناً يضعون سلسلة صغيرة تصل إلى طرف الذراع حتى إذا خرج الخاتم من الإصبع لا يضيع. فإذا كبرت الفتاة وتزوّجت صار لها خاتم أو أكثر، ولا يختلف، في تلك الأيام، خاتم عن خاتم،

كلها من ذهب، وعليها «شرقية» (فصّ) أخضر، والاختلاف يكون في سعته أو ضيقه، وهناك خاتم ذهب عريض بدون فص يوضع في الإبهام يسمى «الفتخة» ولعل زيادة عرضه المفرط جاء ليعوّض عن الفص الذي لا يوضع فيه أصلاً.

بعض النساء تُبقي في إصبعها خاتماً واحداً أغلب الوقت، وإذا كان عندها أكثر من واحد فهي تلبس ما زاد عن واحد عند ذهابها لزيارة أحد. ويُعتنى «بدقّة» الخاتم، ويحلّى الجزء المتصل بالفص والمثبّت له بإطار «مُشرَّف» جميل، وهذا الشكل عام في كل الخواتم.

د ـ المعاضد (الزنود):

أتت الكلمة من العضد لأن الحلية تلبس في العضد، وهي من فضّة وهي كذلك سميكة، وقد

تُلبس، وهو الغالب، فوق كُمّ الثوب الضيق، المسمى بالمِقطَع، والذي يقع تحت الثوب المكمم، ويلي الجسم. والمعاضد شكلها واحد، ولا يختلف فيها إلا «النقشة» الزّخرف، وهي ما يصبح مجالاً لعرض المقدرة على الإبداع في الحلية.

هـ. المجاول :

المفرد هو مجول، وهي حلية من زجاج ملوّن عليه «قمورة» زجاجبة صفراء لامعة، والمجول يلبس في مقدمة الذراع مما يلي اليد، وهو واسع بحيث يدخل في الذراع بسهولة، ورغم سعته إلا إنه لا يدخل من اليد بسهولة، لأنه مصمت، ويستعان بالصابون ليساعد على إدخاله، وعلى إخراجه إذا ما أصبح قديماً وأريد إدخال جديد مكانه. وهو سريع التحطم لأنه

من زجاج رفيع نوعاً ما، ولكنه مهم لأنه هو الحلية التي لا يخلو ساعد المرأة منها، سواء كانت غنية أو فقيرة. ولأنه يتحرك ويجول في الذراع، ويقرع أحدها الآخر، فله صوت مميز، ولا يخلو من نغمة موسيقية إذا كانت حركة اليد منتظمة، مثال ذلك عندما تخض المرأة اللّبن، أو تطحن القمح.

وقد تكون «المجاول» من الذهب الرفيع، ولعله كان الأصل قبل أن تبدأ «الغوايش» القزاز ترد مع الصناعات الحديثة، وأغلب الظن، أنها كانت تجلب من الهند، لأن كثيراً من الواردات التي من هذا النوع مصدرها الهند. وربما أن ما سهّل التوريد من الهند وجود واسطة في الطريق بيننا والهند مثل بعض دول الخليج خاصة البحرين والكويت.

وقد ذكرت أن إدخال المجاول إلى الذراع يؤلم اليد كثيراً، ولكنه ألم محبب للمرأة مادام يضيف جمالاً إلى زينتها التي تروق في عين زوجها وأهله وأهلها. وسرعان ما تنسى المرأة الألم بعد أن يأتي بالنتيجة المطلوبة، ومثل ذلك ألم المخاض والولادة، فالمرأة تنسى هذا الألم المتناهي عند صرخة الطفل بعد خروجه، وصرخة الطفل لا تقتصر على الأُم في فرحتها وبهجتها، ولكن ذلك يشمل أهل البيت جميعاً: سواء أولئك الذين كانوا حولها يتألمون لألمها، أو أولئك الذين كانوا بعيداً عن المنظر، فصدى صرخة الطفل موسيقى لا تعدلها موسيقى، وتتهادى الجدران الصوت، فيذهب من جدار إلى آخر، ناشراً البهجة والحبور، وراسماً بسمات السعادة على الثغور والبشر على الوجوه.

و. مُشْط الشعر:

مشط الشعر من وسائل الزينة، لأنه يقوم بتصفيف الشعر وتكييفه، والمعتاد منه خشب، ولكن هناك نوعاً يأتي من الخارج مصنوعاً من العاج، وهذا نادر، وتتباهي به من وجد عندها. والمشط غالباً ما يكون ذا جهتين، إحداهما فتحاتها واسعة، والأخرى ضيقة، والأُولى هي التي يبدأ بها في تصفيف الشعر الذي قد يتداخل. وقد يكون بعضه انعقد مع بعض، فإذا استوى جيء بالجهة الأدق لتعطيه اللمسة الأخيرة.

وأذكر أني رأيت بعض الرجال وقد خصص للحيته مشطاً يُمسّد به لحيته وشاربه، ورأيت من يحمل معه مشطاً صغيراً. وكثافة اللّحى حينذاك تستحق أن يُخصص لها مشط.

ز ـ الحجول :

حلية تشبه في شكلها المعاضد، تُلبس في الرجل، في أسفل الساق قبل القدم، وهي من فضّة مجوّفة، وقد يوضع فيها حُصيّات تُعطي صوتاً عند المشي، ويُحرص على ذلك أيام الأعياد عندما ترقص النساء والبنات. ولأن الثياب ضافية فهذه لا تُرى عند خروج النساء من بيوتهن.

هذه بعض الحُلي العامة، التي رأيتها عند عدد من البيوت الموسرة، وهناك حُلي أخرى نادراً ما تُرى، وبعضها قد يكون اندثر أو في طريقه أن يصبح من «الكماليات» أو أصبح لا يناسب أجسام بعض النساء، أو ما هو مقبول اليوم، مثل: الزمام، يثقب له في جانب الأنف، ونساء البادية أكثر من يقدم عليه، والسبتة حزام من جلد عليه بعض الحلية.

القليب والحسو :

القليب من المرافق المهمة في البيوت، وهي إحدى مظاهر الغنى، وقد تكون البئر مشتركة بين بيتين كما كانت عليه الحال في بيتنا، وقد يكون أحد الجارين غنياً فيسمح لجاره أن يستفيد من بئره، فيفتح عليها «فرغا» (جانباً)، ويستطيع أن يمتح كل منهما الماء من جانبه دون أن يرى الآخر، كنا نرى دلو الجيران ويرون دلونا ولا نراهم ولا يروننا.

وأحياناً يسقط الدلو في البئر فيستعان «بالعوقدة» وهي آلة حديد تشبه نجفة كهرباء اليوم، في أعلاها عروة لربط الحبل، وإنزاله إلى البئر، وباقي جسمها كلاليب في رأس كل كلاب مثل رأس السهم، بحيث يحاول مُنزلها أن يتمكّن أحد أطرافها بالإمساك بالدلو

أو بحبله، فيرفعه إلى أعلى، وتختلف أحجام «العواقيد، فبعضها صغير لا يزيد عن شنكارين وبعضها كبير قد تصل شناكيره إلى أربعة. ولا يكاد بيت فيه بئر يخلو من عُوقدة، لكثرة سقوط الدلو في البئر.

وأحياناً لا تفيد العوقدة، ولابد من شخص ينزل إلى القليب ويخرج الدلو، وكان لنا جار اسمه حمد المصري ـ رحمه الله ـ وكان أخاً لعماتي من الرضاع، وكان يُستدعى، ونجد أن هذه فرصة لنا لنرى كيف ينزل وكيف يصعد، وكنا نعجب بشجاعته، ونزوله إلى البئر والماء يصطفق فيها كأنه أمواج بحر، رغم أن سعة البئر محدودة، وأظنها لا تزيد عن ثلاثة أمتار في ثلاثة، بقياسي الآن، أما في تلك الأيام فنظرتي إليها توحي بأنها أوسع من ذلك كثيراً، ولم يكن حمد يُستدعى لإخراج الدلو إلا بعد محاولات عديدة من النساء لإخراج

الدلو حتى يصل الأمر إلى مرحلة اليأس، ويقترب وقت إحدى الصلوات، مما يستوجب سرعة إخراجه، لأن «القرو»، وهو ما يملأ للوضوء، قد فرغ ماؤه.

وفيما بعد أصبح لنا بئران، فبيت «الفهد» البسام، الذي ابتاعه الوالد قبل تركنا عنيزة بأربع سنوات أو خمس، فيه بئر لا يشاركنا فيها أحد، وكانت بعيدة عن الحائط الذي يفصلنا عن الجيران «المصلح»، وكان لهم بئرهم الخاصة بهم، ولا يحتاجون إلى غيرها. وقد كانت هذه البئر الجديدة مصدر فرج للبيت، وكنا ووالدتنا نكاد نقتصر عليها في الاستفادة من الماء.

طرفة:

هذه الطرفة تظهر أهمية البئر للبيت، ونظرة الناس إلى ذلك، مما أثّر على الأطفال ونظرتهم للحياة، لما يرونه

من معاناة ذويهم في جلب الماء من أقرب بئر في أحد البساتين، أو من بئر أقرب مسجد.

كان هناك أسرة مكونة من أم وابنها وابنتها، وكانت حالهم رقيقة، وبيتهم صغير، وليس فيه بئر، وكانوا يعتمدون في أمر الماء على ما تجلبه والدتهما من إحدى الآبار القريبة من بيتهم. وكان الصغيران يتمنيان أن يكون في بيتهما بئر. وكانت سنهما بين الخامسة والسابعة، ويبدو أنهما رأيا معاناة والدتهما في مغرب أحد الأيام وقد أحضرت قِدْر الماء على رأسها، وتوضأت ثم استقبلت القبلة، وولداها بجانبها، ودخلت في الصلاة.

فقال الابن لأخته، بعد أن دخلت أمهما في الصلاة: إن شاء الله عندما أكبر سوف أحفر بئراً في بيتنا هذا، وأريح أمي من الذهاب لجلب الماء، وحمل القدر على رأسها.

فقالت الأخت: وأنا حينئذ سوف لا يكون لي هم إلا «زعبّ زعبّ»، أي «امتح امتح».

فقال لها أخوها سوف أكسر إيدك إن مددتها إلى الرشاء، لأنك بزعبك «متحك» سوف تقطعينه.

فقالت له: سوف أزعب وأزعب، وأقطع الحبل رغماً عن أنفك، ولن تستطيع أن تمنعني.

فقال لها: ألم أحفر البئر؟

قالت: حتى ولو حفرتها، لا وزن لك عندي.

وتماسكا، ودخلا في عراك مما اضطر والدتهما - رحمها الله تعالى - إلى قطع صلاتها، والدخول بينهما لفك الاشتباك الحامي، وقالت لهما:

أنتما حتى الآن لا بئر عندكما، ولا دلو، ولا رشاء، انتظرا إلى أن تكبر يا عبدالله، وتحفر البئر، وحينئذ

يتقرر الأمر، إن كنا أحياءًا.

ولا أدري إن كان حفر البئر لما كبر أم لا، وأذكر أنه جاء من عنيزة، وعمل سائقاً في مكة عند أحد كبار القوم، وكان سائقاً مرموقاً محبوباً.

والحسو كما عرفناه هو ما يقف عليه الماتح في (اللزا) وهو محيط البئر، وما يتبعه من قرو أسفل وقرو أعلى. الأول للوضوء، وهو حجر منقور مجوف يملأ ماءًا، وفي أسفله «بلبول» (بزبوز) (حنفية بلهجة مصر)، وهي «ضبة» رصاصة فارغة، تثبت بقليل من الأسمنت، بعد أن يثقب في أسفل القرو ثقب تثبت فيه، وتسد «بسدادة» خرقة صغيرة، تزال عند الاستعمال، وتعاد بعده.

أما القرو الأعلى، فهو أعلى قليلاً من مستوى الرأس، «بلبوله» يقوم مقام «الدش» في حمام اليوم، وهو في

مكان يلي البئر ولكنه مغلق حتى لا يُرى من «يسبح» فيه. والماء بعد الاستعمال غالباً، كما في بيتنا، يذهب إلى النخلتين اللتين كانتا هناك.

الماء الحلو:

الآبار التي في البيوت التي أعرفها كلها مياهها مالحة (هماج)، وكذلك مياه المزارع، إلا ثلاث قلبان هي: «القسيم» و «الحويطة» و «سمحة»[1] فمياهها حلوة. والمياه الحلوة التي تجلب للبيوت للشرب والطبخ تجلب من «القسيم» و «الحويطة» وهما في الأساس لري نخيل هاتين المزرعتين، ولكن ملاّكها سمحوا «للرّوايات» أن يستقين منها. وتراهن وقد

(١) القسيم والحويطة أعرفهما جيداً، وكثيراً ما أمر بهما، أما سمحة، وأظنها للبسام فأسمع عنها.

تجمعن «باللزا» يتلقين الماء من «الغروب» (دلاء السواني) كأنهن خلية نحل بسواد ثيابهن، وسواد قِرَبِهِنّ، وهن يعدن في الأصل إلى أفريقيا، وتكاد تلك المهنة تكون مقتصرة عليهن، وقد يكون ذلك لقوة أجسامهن وضخامتها.

وتأتي تلك النساء (الرّوّايات) «جمع روّاية»، بالماء إلى البيوت في قِرَب كبيرة، ثم تُصب بِقِرَبٍ في البيوت. والقِرب في البيوت نوعان، نوع جديد، ونوع يسمى «شنّة»، وهي القِربة القديمة، التي ذهبت منها رائحة «الدُّباغ» (الإرطا)، وقِدَمها يجعل رشحها كثيراً، وهذا يجعل الماء فيها بارداً، خلافاً للجديدة. وهذا النّضح يجعل أصحاب البيت يضعون تحت القربة وعاءًا يتجمع فيه «ناقوط» القِربة، في حوض غالباً ما يكون منقوراً في صخرة حتى لا يسيح الماء في المكان، والقِربة

معلقة فوقه «بِمِحْجَان»، و «المحجان» خطّاف يأتي في أسفل حبل متدل من السقف تعلق القِربة به.

كانت القربة في بيتنا في القبّة، في وسط البيت، وهذا يعطيها فرصة لأن تكون أبرد مما لو كانت قريبة من مكان ليس بعيداً عن الشمس. وقليل من الناس يشرب من الوعاء الذي تحت القربة إلا إذا ضمن أنه لم يأت قِطّ ويشرب منه، ولا تأتي القطط في عنيزة غالباً إلا في الليل، لأنها كما سبق أن ذكرت متوحشة.

غسل الملابس:

الأغنياء تُغسل ملابسهم في بيوتهم، لوجود آبار تسهل عليهم الأمر، وقليل جداً من الأسر تستعين بخدم يغسلون ملابسهم، وإنما يغسلها نساء البيت من أم أو أخت أو ابنة، وهذا العمل مصدر فخر لهم

يباهون به

وغسل الملابس إما بالإشنان (الشنان)، وهو من الشجر، أو بالصابون. وفي الغالب تغسل ثياب الصغار والنساء بالإشنان، وثياب الرجال بالصابون، ولعل السبب أن الصابون غالٍ، وثياب الصغار تتسخ بسرعة، ولو غسلت بالصابون لكلف هذا كثيراً، والصابون مادة تأتي من خارج نجد، بينما (الشنان) من شجر في القصيم، يدق حتى يصبح دقيقاً، فيُغسل به، وهو ينظف جيداً بسبب ما فيه من خشونة.

كي الملابس:

وكي الملابس لم يكن معروفاً بعنيزة البتّة، ولهذا تجد الثياب «مُعَرفطة» (مكرمشة) لم تُمَلَّس، وكان هذا يتضح أكثر في نوع من القماش يسمى «الرِّيزه»، وهو

جميل ولباس رَفَهٍ إلى أن يغسل فيصبح مثل الرجل الذي شاب بين عشيّة وضحاها، يصبح منظره سيئاً، أقرب إلى قماش «الخام» المعروف برخصه وخشونته. وقماش «البفتة» هو اللباس الغالب للقادرين وأواسط الناس، وهناك «المَلْمَل»، وهو قماش خفيف شفاف يلبس في الصيف، ولا يقتنيه إلا الأغنياء، وكان لباس جدي وعمي في الصيف منه، وكذلك لباسنا نحن الصغار، ولكنه علينا لا يتحمل كثيراً، ويتمزق سريعاً. ولا غرو فحتى الخام في الشتاء يتمزق علينا من العراك الذي يقوم بيننا، وما نتسلقه من جدران، و «الدغملة» على الأرض والتدحرج، والمطارحة.

لم ندر أن الملابس يمكن أن «تُكوى» حتى تكاد تبدو جديدة إلا عندما سافرنا إلى مكة، ورأينا ذلك

بأعيننا، مما أدهشنا، وقد كان أمراً معتاداً فيها ـ شرّفها الله ـ ولا تكاد ترى ثوباً غُسل إلا وكوي، والغسل في مكة يتم في البيوت، وكذلك الكوي، وهناك غسالون عامون يلجأ إليهم العزاب، يقومون بالغسل والكوي بأجرة.

طرفة :

هذه الطُريفة تؤكد جهلنا في عنيزة بأمر المكوى وشكله ودوره، وما توحي به هذه الكلمة إذا رُدَّت إلى أصلها اللغوي عند من يسمعها لأول مرة:

وفد إلينا في مكة أحد أقربائنا، صبي عمره في حدود اثني عشر عاماً، وقالت له إحدى النساء في البيت يوماً:

يا فلان، إحضر المكوى من الغرفة الثانية.

فذهب وبحث عن المكوى فلم يجده هناك، وعاد إليها، وقال:

لم أجد أي مكوى في الغرفة، وقد بحثت جيداً، وكان قد سبق أن رآها تكوي الثياب بالمكوى، ولكنه لم يعرف أن هذه الأداة اسمها مكوى.

فأخذته من يده وأرته إياه، وقالت له:

هذا هو المكوى، ألم تره؟

فقال لها: بلى، ولكنك قلت المكوى، ولم تقولي: «المدْماك».

والمكوى في عرفه «سيخ من حديد»، أي قضيب رفيع من حديد، ويُكوى به الإنسان علاجاً، ويكوى به الحيوان علاجاً أو وسماً.

لقد أصبح هذا الموقف طرفة تتندر بها النساء.

الثياب وخياطتها :

في عنيزة كانت الثياب وبقية الملابس تُخاط باليد، ومكنة الخياطة لم تكن معروفة إلى عام ١٣٥٥ هـ عندما جاءت سيدة معها مكنة خياطة، وهي نجدية إلا أنها جاءت من مكة أو المدينة. وكان معها ابنها، وكان في سننا، وفرحنا به لأنه جاء ومعه بعض الأفكار الجديدة عن الألعاب. وكان مقبولاً منا جميعاً. واستفادت والدته من المكنة في الخياطة للناس، واستفاد الناس أيضاً منها خاصة في أوقات الأعياد، وتركتُ عنيزة في آخر ذي الحجة من عام ١٣٥٦ هـ، وهي لاتزال هناك.

كان كل بيت تقوم نساؤه بخياطة ملابس أهل البيت، وقد يستعينون بنساء أخريات بأجر، وهناك «نفذة» «الشل»، وهي «غرزة» مؤقتة، يتلوها «الكَفّ».

وقد تكون «النفذة» طويلة، وهذه أقل مستوى من «النفذة» القصيرة، و «النفذة» هي دخول الإبرة، وفيها الخيط، في القماش وخروجها منه. والتفصيل ليس بدرجة الإتقان التي وجدناها لدى خياطي مكة.

الأحذية :

الكلمة الدارجة على الألسن «نِعْلة» و «نِعَال، وعند الفقراء تُعد من «الكماليات» في الصيف، فقليلاً ما يلبسونها، ونحن الصغار لا نلبسها في الصيف، لأنها تعوقنا عن الركض، ومن لبسها منا سرعان ما يبليها. وعدم لبس الحذاء فيه أذى لهؤلاء الصغار، فهم معرضون للشوك يدخل في أرجلهم، والمسامير. ومن الآفات في هذا الجانب «اللكمة»، وهي أن تصطدم الرجل بحجر أو بخشبة، فتجرح،

ثم «ينقل» الجرح قيحاً، وليس لهذا دواء عند الأطفال إلا دواء بدائي، أبعد ما يكون عن النظافة. فأحدهم يبول على الجرح، ويجد راحة من حرارة البول توهمه أن هذا هو أول العافية!! وهو دفء مؤقت، ولكن الله ينفعه بالمناعة التي كسبها من كثرة هذه الحوادث. ولا يستغرب أحياناً أن يتعقد الأمر، ويترك الجرح عاهة في رجل الصبي، ويكاد يكون مستحيلاً أن يلبس حذاءً، وإنما يبقيه في البيت أو عند عتبة البيت إلى أن يمن الله عليه بالشفاء.

أما في الشتاء فالشتاء وبرده يجبران الصغار والكبار، الأغنياء، ويجبران من استطاع من الفقراء على لبس الحذاء، فيجاهد الشخص على التنصّل من ذلك. ويغلب على الناس في الشتاء لبس الحذاء. وأكثر فائدة من لبس

الحذاء لبس «الزرابيل» (جمع زربول)، وهو حذاء من صوف يشبه الشرّاب يصل إلى كعب القدم، يخرز على أسفله جلد بعير، لسماكته، وعلى جوانبه وفوقه جلد غنم، وقد يكون الأسفل أكثر من طبقة ليتحمل الاستعمال، وحتى لا تأكله الأرض بسهولة. وليسهل دخول القدم فيه يفتح قليلاً في مؤخر مكان الشِّسْع من الحذاء المعتاد، وللزربول سير يربط به بعد أن يلبس.

أما الأغنياء، فلا يستغرب أن يُرى أحدهم لابساً جزمة (كندرة)، لأنه ليس في عنيزة من يصنع هذا النوع من الحذاء، وهي تُجلب من الخارج، أو من مكة أو المدينة. أذكر أن جدي ووالدي وعمي كانوا يلبسونها. وأغلب الظن أن والدي كان يحضرها معه عندما يعود من إحدى سفراته، وأتوقع أن يكون

إحضار الجزمة لعنيزة لمن قدم من الخارج خير هدية تقدم للأقارب والأرحام.

أرسل والدي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ في سنة من السنوات جزمة لي، ولعله كان حينذاك في مكة، أذكرها جيداً، وكأنها أمامي، فكانت «فرجة» لزملائي وأندادي، وكنت أفاخر بها، وبقدر ما أذكر من صورتها الآن لا أذكر الشُّرّاب، وأغلب الظن أني كنت ألبسها من غير شراب، وإن كان هناك شُرَّاب فقد بلي سريعاً، لأن الجزمة سرعان ما لحى مقدمتها سوء الطرق والسير عليها، وتعرضها للأحجار، وللحفر والمرتفعات والمنخفضات المفاجئة.

وقد بقيت إلى العام التالي، ولكنها أصبحت نوعاً ما ضيقة، فصبرتُ على الألم الذي تعانيه الأصابع من

ضيقها، ولكن الجزمة لم تصبر على الأذى «فانفزرت» من الخلف، وتقطعت خيوط الخياطة، فأرسلني عمي لأحد الخرازين، فأصلح الخلل الخلفي، ولعله زاد في السعة، فأعطاني عمي «قطعة»، وهي بالنسبة للريال الفرنسي مثل نصف القرش للريال السعودي، فلما علم جدي رآها قليلة فأعطاني «قطعة» أخرى، فرح بها الخراز فرحة ظاهرة، وقد أكملت الجزمة مهمتها هذا العام، وفي العام التالي انتقلنا إلى مكة، فاستراحت مني.

من أدوار الحذاء:

للحذاء دور آخر يتعدى لبسه في القدم حمايةً ودفئاً، وهذا الدور مهم نوعاً ما، فهو، مثل العصا، يستعمل لحجز مكان في الصف الأول في المسجد، خاصة

لصلاة الجمعة، يأتي من يضعه في المكان المقصود قبل وقت الصلاة بزمن كاف يمكن لواضعه أن يجعله في المكان الذي يختاره، أو الذي يطلب منه أن يضعه فيه إلى أن يأتي من حجز له المكان.

ويحجز المكان لكبير السن، أو كبير المقام، وهو ـ بلا شك ـ مظهر تكريم، ولولا هذا الحجز لجاء مكان صاحبه في آخر الصفوف أو في وسطها. ولأهميته نُحت من فعله مَثَل، يقول: «فلان له في الصف عصا»، والعصا والحذاء متعادلان في العمل والأهمية. ويقال هذا المثل عندما يكون الشخص محظوظاً (مبخوتاً) مقدماً عند شخص لمقامه أو ماله، أو لقرابته، وأخو الزوجة مقدم عند زوجها لأجل زوجته، فهو يُقرَّب، وتُغفر له زلاته لأن له في الصف عصا.

وحجز المكان بالحذاء أو العصا، أو هما معاً، قد لا يكون مقبولاً عند كل الناس، فبعض الناس يتذمّر من هذا الفعل، محتجاً بأن المكان لمن سبق، وقد يقدم بعضهم على تحريك الحذاء أو العصا من مكانه إلى مكان أبعد، ويجلس حيث كان الحذاء، ويعد من يفعل ذلك نفسه للدفاع عن فعله، متسلحاً بحجته أمام أي اعتراض من صاحب الحذاء، وقد يكون هناك أخذ ورد، وعراك لفظي، ولكن صاحب الحذاء غالباً يحكمه العقل، ويطلب السلامة، ويغض طرفه عما حدث، لأنه يدرك أن موقفه أمام حجة خصمه ضعيفة، فالمكان لمن سبق لا لمن حجز.

وقد تجد حذاءً حجز به مكان للصلاة خلف الإمام، أو قريباً من ذلك المكان، ولا تجد أحداً يزحزحه أو يبعده،

لأن الناس يعرفون أن هذا المكان هو لرجل متقدم في السن والمجتمع، وله مكانة بين الناس، يقدرونه ويحترمونه، ويفرحهم أن يقدموه وأن يميزوه، ويعرفون أنه لا يستطيع، لسنِّه، أن يأتي مبكراً، وأن هذا التأخر لعذر شرعي مقبول من الناس، كأن يكون بسبب الحصر فهو لا يستطيع أن يبقى في المسجد طويلاً. ومثل هذا يقدّر العقلاء حرصه على أن يكون مكانه في الصف الأول، وخلف الإمام، طلباً لزيادة الأجر، ورجاء فيما عند الله ـ سبحانه وتعالى.

وفي تلك الأيام كانت المدن التي تقام فيها صلاة الجمعة قليلة السكان، ويكاد كل فرد فيها يعرف الآخر، ولهذا إذا أقبل الشيخ الكبير في سنِّه أفسحوا له الطريق، ليتخطى الصفوف حتى يصل إلى مكانه

في الصف الأول، وبعضهم يفسح له مكاناً دون أن يكون قد حجز له، ويزيد العطف، وتتوالى المساعدة إذا كان الرجل كفيفاً.

ثقيل الظل :

من الأمور التي تتصل بالصف الأول، والحرص على ضمان مكان فيه، نأتي نحن الصغار مبكرين، لنتأكد من اختيار مكان متميز، وبعض الكبار لا يعجبه أن يكون الصغار في الصف الأول. وكان هناك رجل يأتي ويبعدنا، وإذا كان من أبعدونا متعددين أوصلونا إلى الجدار الأيمن من القبلة أو الجدار الأيسر. وتكاد تكون هذه قاعدة عند هذا الرجل، وإذا كنا وصلنا في «الإبعاد» إلى آخر الصف فإنه يخرجنا ويأخذ مكاننا، رغم أننا نحرص أن نكون دائماً في نهاية الصف أو

قرب النهاية.

لقد كان عمله هذا يُحنقنا، وصرنا نكرهه لأجل هذا على الرغم من أنه من أسرة كريمة. وتدارسنا الأمر فيما بيننا، واتفقنا على أن ننتقم لأنفسنا منه، وكان بيننا شجاع صمم على أن يكون هو منفذ الخطة. وأرض المسجد كالمعتاد مفروشة «بالسهلة» الرمل الأحمر، فملأ «حجره» (أسفل ثوبه) بالرمل وصبّه على ظهر الرجل ورقبته. فكان هذا محل إعجاب منا، وانتصاراً لكرامتنا، وإثباتاً لبطولتنا، وبهذا أخذنا حقنا منه وافياً.

وكانت خفة روح الرجال عندنا، وحبنا لهم ترجع إلى حسن معاملتهم لنا، ورقّتهم معنا، ومراعاة سننا، وما يأتي منا مخالفاً لما توجبه الحكمة، ويقتضيه العقل، وكان رضانا يظهر بمبادرتنا بإيقاف لعبنا عندما يمر بنا خفيف الظل، ومن نحبه ومن هو مقبول منا، ونسلم

عليه، ونمسيه بالخير أو نصبحه به. أما سخطنا على الرجل الذي لا نقبله، أو لا نحبه، فنعبر عنه بعدم إيقاف اللعب، أو إذا تسامحنا أوقفنا اللعب، وانزحنا إلى الجدران، والتصقنا بها بدون أن نلقي التحية.

ولم نكن نتوقع أن ثقال الظل هؤلاء سيلقون التحية علينا، رغم أنهم السائرون ونحن الواقفون، ولكن لا اعتبار لنا عندهم، ولا نستحق أن يلتفتوا إلينا. وهناك فريق ثالث لا نكتفي بإيقاف اللعب احتفاءً بهم، ولا يقنعنا طرح السلام والتحية عليهم بل نمسك بيدهم، أو بأطراف مشالحهم، ونسير معهم حتى يصلوا إلى بيوتهم، إن كانوا يقصدون بيوتهم، أو إلى دكان في السوق إذا كانوا قد قصدوا ذلك، وعلى رأس هؤلاء الشيخ الحبيب عبدالرحمن الناصر السعدي، كنا نركض لنستقبله قبل أن يصل إلينا، ونمسك بيده، أو

«بطرف» مشلحه، ونسير بجانبه مبتهجين فخورين، نرتوي من ابتساماته، ودعواته، يوزعها علينا ذات اليمين وذات الشمال. لهذا كان ساكناً سويداء قلوبنا، وصورته لاتزال مرسومة في أذهاننا. وعندما شدوت في الدراسة رأى عمي أن استفيد من دروسه ـ رحمه الله ـ وكان يلقيها عند طلوع الشمس في روضة المسجد الجامع بين «المصباح» و «الخلوة». وكان الدرس في كتاب «ثلاثة الأصول»، وهذا الكتاب لا يزال عندي، وقد تناوله مني مرة عمي إبراهيم ـ رحمه الله ـ ليجرب خط قلم كان معه، فكتب على غلافه: «هذا ما كنّا نبغي»، ولا تزال هذه الآية على الغلاف[1]، وما أثمن هذه النسخة، وما أثمن هذا التعليق ـ رحمهم الله جميعاً ـ فقد كانوا يشجعوا دائماً من يرون أنه ربما يأتي

(١) انظر صورة صفحة الغلاف وعليها الجملة المذكورة ص: ٣٠٩.

منه خير، ويحاولون هداية من يجدون أنه أقرب إلى اللعب منه إلى الدراسة، وإلى القيام بواجبه نحوها، وإلى خدمة أهله. كانوا نعم المربين، ولعلهم في داخل أنفسهم، وهم يتحلون بهذا الخُلُق، وتحكمهم هذه الروح، يقولون: لقد كنا صغاراً مثلهم، ونعرف ما يمر به الصغير والمراهق. ولا يستغرب هذا ممن امتلأت صدورهم بعلم الشرع، وتشربوا ما فيه من فضائل، وما يدعو إليه، وما ينهى عنه.

الوقود:

الحطب هو الوقود الرئيس في عنيزة في زمننا، وأذكر منه نوعان: «الغضا» و «السَّمر». وكان هناك جمالون معروفون يُتفق معهم على إحضار حمل أو أكثر، وكان الحطب يحمل على البعير، ولعل المكان

الذي يوجد فيه كل نوع يبعد عن عنيزة بمسافة تكون الحمير أمامها غير اقتصادية. والحطب يؤتى به غير مهذب، فيه أغصانه الصغيرة والهشة، وهذه لها فائدة لأنها تكون الوقود الأول عندما تُشعل النار، وهي التي تهيئ الحطب الجزل للاحتراق، وإذا لم يكن منها شيء يستعان بخوص النخل «وِلْعة».

ونحن الصغار نحب هؤلاء الجمّالين، لأنهم في الغالب يأتون معهم «بالطراثيث»، وهو نبت أكثره داخل الأرض، ويبدو أنه يكثر في الأرض التي يوجد فيها «الغضا». ولعل الجمّال يأتي به ليأكله هو وأهله وأولاده، فيعطينا منه، أو يعطينا إياه كاملاً إذا أكرمه أهلونا «بهجور» جيد من التمر، كما هو المعتاد. وجزء من «الطرثوث» يؤكل نيئاً، وجزء يُشوى، وفي بعض

الأحيان، وقت الربيع، يحضر الجمّال «العنصلا» أو «العنصلان» وهو بصل البرية، وهو بصل بارد ولذيذ.

والحطب كما هو معروف يطبخ عليه الأكل، ويقرص الخبز، وتعمل عليه القهوة والشاهي، ويتدفأ عليه في الشتاء، ويوقد عليه قدر« المدودة» (النفيعة) غذاء البقرة أو العنز. ولم نعرف أن القاز يمكن أن يستفاد منه في المجال الذي يستعمل فيه الحطب، إلا بعد أن جئنا لمكة، ورأينا الدوافير، وهي مصدر دهشة لنا جديد. وأي نوع من الخشب فإنهم يستفيدون منه وقوداً، فكرب النخل تتخذ وقوداً، وكذلك جذامير النخل الجافة، والخوص اليابس، والأثل وأهدابه، وبعض ما لم يخطر على البال أن يكون وقوداً يطوعونه لهذا الغرض، مثل الجلة:

الجَلَّة :

كلمة «الجلّة» ربما أنها أخذت من «الجَلّ» وهو الجمع، وقد ورد في مختار الصحاح: «جَلّ البَعَر» أي جمعه. وفي العامية توحي بأن الجل هو جمع شيء مبدد على وجه الأرض. والجلة المقصودة هنا ما هي ما يجمع مما ترميه البقرة من بطنها «الخثي» وهو روثها، وهو غير قليل لكثرة ما تأكل من الأعلاف، ولاستمرارها ما بين أكل واجترار طول النهار مادامت مستيقظة، وتأتي دفعات كبيرة منها وليس حبات صغيرة مثل «بَنِّ»[1] الأغنام وبعر الإبل، ويجمع ما يسقط من البقرة في زنبيل، و «يُجلّ» في حوش أو سطح، وجَلُّهُ أن تأخذ

(١) دمن الغنم عند العامة اسمه (بنّ)، ومفرده «بنّة». والغريب أن «بنّة» اسم امرأة عند بعض القبائل. والبنّة أيضاً عندهم «المؤونة» ويسمى الجمل الذي يحملها: «جمل البنّة».

منه المرأة في يدها ما يملؤها، ثم تضغطه فيخرج ما فيه من بلل، ويكون كفها قالبا له، ثم تضعه واحدة واحدة في صف يليه آخر، وتتركه في الشمس حتى يجف تماماً، ثم يحمل بعد ذلك في الغالب إلى ركن في المطبخ، قريب من المتناول، بعيد عن المطر.

وأغلب ما تستعمل له الجلّة قدر الطبخ خاصة عند اقتراب نضوج ما فيه لضعف جمرة الجلة، وتكون «ملَّة» مثالية، وتوضع تحت كل قدر يُتفادى عادة وضع لهب قوي تحته.

وكم جاءت جلة بعر الإبل إنقاذاً لبعض المسافرين عندما لا يكون معهم حطب، والأرض التي مروا بها، أو وقفوا فيها غير مُشْجِرة، وحينئذ لا يسعفهم إلا بعر الأباعر.

وهناك قصة تروى عن أناس عزفوا عن شرب القهوة في رحلة من الرحلات، لأن معهم من الحطب ما يغنيهم عن الجلة، وأنفوا أن يشربوا قهوة صنعت على وقود جلة، وفي رحلة أخرى لم يكن معهم ما يساعدهم على عمل القهوة إلا الجلة، وكانوا في عجلة من أمرهم، وكانت «خرمة» القهوة عليهم شديدة فرحبوا بالجلة حينئذ، ومدحوها وقالوا جملة أصبحت مثلاً: «الجلة هي الجلة» أي نعم الوقود هي.

الفِرَاش :

هناك نوعان من الفِرَاش، فراش تُغطى به الأرض، وفراش ينام عليه الناس، وفراش الأرض نوعان سجاد يجلب من الخارج، وهذا نادر، والمعتاد أن يرى في المجالس «القهاوي» في البيوت نوع يُعرف

«بالسياح»، وهو نسيج صوف خشن، تقوم به نساء البادية في الأغلب، وهو من وبر الإبل أو صوف الأغنام، وتصبغ بعض خيوط الصوف هذه بألوان مختلفة لا تزيد عن ثلاثة. ولا تفرش السياح على الأرض مباشرة، وإنما في الغالب فوق الخصف، ليحميها من الأرض، ولا تكاد تدخل «قهوة» بيت إلا وتجد السياح، إلا بيوت الفقراء فتجد فيها الخصف فقط.

أما الفراش الذي ينام عليه الناس فهو أنواع حسب قدرة الشخص، فهناك من يضع على الأرض فوق الحصير «دوشق»، ولعل الكلمة فارسية، وهو أقرب إلى ما نسميه اليوم «الطُّرّاحة». وقد يُفرش فوقه غطاء، ويكون معه في الشتاء «بطانية» أو «مُضَرّب». وقد يكون الفراش مُضَرّبا فقط، خاصة في الصيف.

وهناك «الوسادة» (المخدّة)، وتُحشى غالباً بالقطن، ولكن هناك من يحشوها بالتبن لقلة ما في اليد، وهناك «الرِّداء» وهو غطاء قطن خفيف «شرشف».

وليس هناك غرفة نوم مخصصة فيها سرير وطراحة و «ملاية»، والأمر لا يعدو أن يكون فراشاً يفرش على الأرض للنوم، ويُطوى بعده ليكون متكأ يضع المرء مرفقه عليه، وغرفة الجلوس هي غرفة النوم، أو الطرقة هي غرفة الجلوس، وغرفة النوم، ولم أستغرب أن أسمع عن رئيس شركة يابانية كبرى يسكن في غرفة فيها حمام، أما السرير والمطبخ، فتدخلان في الجدار في وقت الجلوس، وتبرزان عن الحاجة إليهما، يبرز الفرن وما معه عندما تريد ربة البيت أن تطبخ، ويبرز السرير عندما يأتي وقت النوم. وهذا يؤكد أننا

غير صادقين عندما نقول إننا كنا نعيش عيشة أقرب إلى البدائية، على الأقل كان عندنا أكثر من غرفة، ولا يدخل مطبخنا وغرفتنا في الجدار!!.

البنات والتخفر :

سبق أن تحدثت عن الرَّوايات، حاملات القِرَب، وأنهن يدخلن البيوت، بحكم عملهن، ويرين البنات منذ أن يولدن، ويتابعن نموهن كل يوم، ولهذا فهن خير من يستشار ممن يبحث، هو أو أهله، عن زوجة بصفات معينة.

والبنت تأخذ في النمو إلى أن تبلغ سن البلوغ، أو تقاربه، ثم «تتخفر»، أي تحتجب عن الخروج من البيت، أو مقابلة الغريب، ما لم تكن فقيرة يستوجب طلب الرزق أن تخرج مع أمها وتبحث عنه في مظانه،

خدمة في المزارع، أو في البيوت.

ويسبق التحجب احتفال تقوم به زميلات المقبلة على «التخفّر»، فيقمن معها «بزفة»، يدرن معها في الأسواق القريبة، ويغنين بعض الأغاني التي تدل على الهدف من هذه الزفّة، وتلبس البنت ثياباً برّاقة وجميلة، و «بخنقاً» يغطي الرأس، وينسدل على الظهر والكتفين والصدر، ولا يترك إلا الوجه، وطعمت حواشيه «بالزري» تجميلاً له، وهذا يجعل البنت حديث الناس في تلك الأيام، وكلٌّ يُعلم الآخر أن فلانة تخفرت، وكأنه قد طُلب منهم أن يسجلوا هذا الحدث في خزائن أذهانهم، و «ملفات» تفكيرهم للرجوع إليه عند اللزوم، وما أسرع مجيء هذا اللزوم، فالشباب والشابات، إذا توافرت المقدرة، يتزوجون صغاراً.

على هامش الحديث عن البنات :

ويضاف إلى ما سبق أن قلتهُ عن البنات وهن صغار، وما قلته عن خزم آذانهن، وإبقاء حلية صغيرة لطيفة في الثقوب التي تحدث في مكان محدد، وما قلته عن لبسهن «البخنق» للزينة فإنهن يحرصن أن يكتحلن، ويُعد الكحل للصغيرة والكبيرة من أهم وسائل الزينة، ومن لا تكتحل تنتقد وينتقد أهلها لذلك إن كانت صغيرة.

ومن أدوات زينة الإبنة الصغيرة خاتم صغير أيضاً يوضع في الإصبع الصغير عندما تذهب مع أمها لزيارة أحد، أو عند الاحتفال بالعيد.

هناك، كذلك، «حرز» يُعد من الزينة، وهو لوحة صغيرة من الفضة تقرب من ثلاث بوصات، بها

سلسلة تُمكِّن من تعليقها في الرقبة، مكتوب على وجه منها آية الكرسي، وأحياناً تكتب سورة الفاتحة على الوجه الآخر، ولبسه شائع عند بُنَيّات كثير من الناس، وغالباً ما يأتي هدية من أحد الأقارب أو الأصدقاء أو الجيران، وهو محل اعتزاز من الطفلة، وأداة مفاخرة.

ولا يخلو أمر لبسه من بعض اعتراض مبني على أساس ديني، لأن الواقي هو الله، وليس أداة تُعلّق في الحلق، تؤدي إلى الاعتقاد بأنها تحمي الطفلة، والحامي هو الله. ثم تدخل الطفلة بها الحِشّ، وهذا غير مقبول البتّة، وهي في الغالب لا تفعل ذلك إلا ناسية، ولكن هذا الاعتراض لا يلقى إلا أذناً صماء من الناس، وفي هذه الحالة تبدو العادة أقوى من العبادة.

البنات ربات بيت :

تحرص الأمهات، ومن في البيت من النساء، على تنشئة الابنة تنشئة تجعلها ربة بيت عندما تتزوج، لأن أغلب البنات بعد أن يتخفرن لا يذهبن إلى الكُتّاب فإن أغلب وقتهن يقضينه في عمل البيت، ويتخذن من نساء البيت العاملات، ونشاطهن قدوة للعمل الجاد المتواصل، مسلّمات بأن هذا واجب عليهن، أولاً لأن فيه مساعدة للسيدات الكبيرات، وثانياً لأنهن في حاجة إلى اتقان العمل ليكنّ مُعَدات ليقمن بواجبهن تجاه بيوتهن في المستقبل، وإراحة أزواجهن وأهلهم.

ويتركز العمل اليومي في كنس الأماكن بالعذق، وجمع ما يتكون مع الوقت من أتربة، وفي تكسير الحطب، ونقله من مكانه إلى حيث يكون الإيقاد به،

وفي إيقاد النار وتهيئتها للطبخ، وفي القيام بالطبخ إذا كانت الابنة قد أصبحت في سن تسمح لها بالطبخ. وهناك خض اللبن، وهو عمل مهم، ويقام به يومياً لمن عنده بقرة. وجل الجلة من المهمات الثابتة في كل يوم. وفي نهاية الصيف هناك عمل «العبيط» (عجين التمر) تهيئة له ليكون معداً عندما يأتي وقت أكله في الشتاء. وفَرْش الفُرُش صيفاً وشتاءً من المهمات التي تساعد فيها الإبنة أهلها، وملء القراوة بالماء للوضوء والسباحة. وحلب البقرة كذلك من الأمور التي تتعلمها الابنة منذ صغرها. وتقوم بالمساعدة في غسل الملابس، وملء السرج بالقاز، وتنظيف «الوجار» من الرماد، وتهيئة الحطب له. فإذا بقي لها وقت بعد أن تعتني بنفسها وشعرها فإنها تقوم بخياطة بعض الملابس لها أو لغيرها.

لهذا تشعر الوالدات أو العمات بفقد كبير عندما تتزوج الإبنة، لأن كل ما كانت تقوم به، أصلاً أو مساعدة مع غيرها، سيقع على والدتها أو عمتها أو أختها إن كان لها أخت. ويشعر الوالد بأنه فقد شيئاً كبيراً، ولكن فرح الوالد والوالدة بزواجها ينسيهما التعب والنقص الذي يحدثه ذهابها.

من هذه العادات والتقاليد استطاعت الأجيال أن تحافظ على تراثها في الأمور التي تخص شؤون البيت وما يلزمه، دون أن تفقد هذه الأمور أصالتها، فهي تسلم من يد ليد، ومن جيل إلى جيل، أمانة حفظت بعهد، وسلمت بعهد.

فنحن اليوم ونحن نحاول أن نحافظ على تراثنا الشعبي في الأكل يجب أن لا ننسى فضل الله علينا في

أن جعل مثل هذا الأمر بهذه الصفة التي وصلت إلينا بها تلك العادات التي نشعر الآن أن علينا أن نحافظ عليها. ومما يبهج الإنسان أن يرى الحرص على أن تكون المائدة الحديثة مُطَعَّم ما فوقها ببعض الأكلات الشعبية التي تجد من غيرنا إعجاباً، واستحساناً بها، وبطرافتها ولذتها، فالجريش والمرقوق والمظبي والسليق والمبشور ابتسامات وطنية على أي مائدة.

المحيط الذي عشنا فيه :

إطاراً لما سبق أن ذكرته يحسن أن أصف الأحياء بإيجاز، والمظاهر العامة فيها، وما تسببت به من آثار على نشأتنا، وإن كانت أجزاء من هذه الصور قد مرت بنا هنا وهناك عندما استوجب ذكرها إيضاح الأمر، أو تكملة الصورة.

الأحياء:

عنيزة، مثل غيرها من بلدان نجد، أحياء متلاصقة، يصلها ويصل بيوتها شوارع ضيقة، وأسواق يوصل بعضها إلى بعض بطرق عشوائية، اقتضاها التوسع غير المخطط، ولكنها مثل غيرها كلما زاد سكانها زحفت إلى الاتجاه الذي ليس فيه عوائق ما أمكن ذلك، والرمال في عنيزة أحياناً هي التي تتحكم في الاتجاه، وإن كان يساعد أحياناً على التغلب على الرمال إنشاء المزارع، وهذه بعد سنوات بعدما ساهمت، دون قصد، في تهيئة التوسع، كانت من بين عوامله.

وكان يحكم التوسع كذلك إنعدام الأمان مما يوجب وضع سور محكم على البلدان، وهذا يوجب التحكم في خطط الأحياء، فلا تكاد تجد شارعاً غير رئيس

إلا واتساعه يكاد لا يسمح بمرور ثلاثة رجلين فقط أو ثلاثة، ولا تكاد تجد بيتاً ليس مشتركاً مع آخر في جدار واحد، وبئر واحدة، وكثيراً ما يقابلك «سوق سد» لا ينفذ، لأن التوسع يضعف الأمان، ويرهق في مدّ سور بالإمكان تفاديه بهذه الأمور التي طبيعتها الضيق والتلاحم والتلاصق.

والمباني كلها من الطين، وقد يوضع الأساس من الحجر، تقوية للأساس، وحماية له من الأمطار، والبيوت المتواضعة تُبنى من طابق واحد، والكبرى من طابقين، وقليل من البيوت يقع على شارعين، والأغلب أن يقع على شارع واحد، للأسباب التي ذكرناها عن الأمن، والتحصين والحماية، وتُسقَّف البيوت بأخشاب الأثل طولاً، ويوضع عليها عرضاً سعف النخيل، وفوق

ذلك يوضع الطين بسماكة كافية. والسقف يصبح مسكناً مريحاً للعصافير في الصيف نهاراً وفي الشتاء ليلاً، وكذلك الوزغ يجد فيه راحة ومأوى مثالياً. وإذا كان السقف فوقه السطح فالسطح «يُنعَّل» بين آن وآخر، لأن الأمطار تجرف بعض الطين، فيعوض بطين جديد، ويسمى هذا تنعيلاً.

ويُعد بيتنا من البيوت الكبيرة، فعدد «الصفاف» وهي الغرف الأرضية سبع بما في ذلك «القهوة»، وعدد «الرواشن» (جمع روشن)، وهي الغرف في الطابق الأعلى ثمان غرف. وعادة الحمائل القادرة إذا تزوج أبناؤها بقوا في بيت والدهم، مهما بلغ عددهم، ولكن هذه القاعدة قد تُخرق، إما لضيق البيت، وعدم القدرة على توسعته، أو لقلة ذات اليد، أو لأنه ليس

من بين الجيران من يرغب في بيع بيته، أو لأنه ليس هناك ما يمكن أن يستعان به للتوسعة. وقد يكون سبب خروج الابن من بيت والده وسكناه منفرداً أو وحده أن من بالبيت زوجة أبيه لا أمه.

وقد بقي والدي وعمي إبراهيم مع أبيهم علي (جدي) في بيتنا، الذي كنا نسميه بيت الهفوف، نسبة للحي الذي نسكنه، وقد كان البيت كافياً عندما كان لوالدي زوجة واحدة، ولكن بعد زواجه من والدتي شعر ـ رحمه الله ـ بالحاجة إلى التوسعة، فاشترى بيتاً ملاصقاً لبيتنا من الجهة الشرقية، من شخص اسمه فهد البسام. ولا أدري هل كان فهد البسام يسكنه أم كان مؤجراً، وأصبح اسمه عندنا «بيت الفهد»، وهو في حي القاع. وشراء هذا البيت جعل مسكننا

يصبح على شارعين وعلى حيين متظاهرين: «الهفوف» و «القاع». وبشرائه أصبح لدينا فائض من المنازل، تبين أننا في حاجة ماسة إليها، ليس للنوم وحده، ولكن لأمور أخرى، ومنها حاجة والدي إلى أماكن يخزن فيها معدات الرحلات، ولعله كان قبل ذلك يستأجر لها بيوتاً في ضاحية من ضواحي عنيزة، تتسع لها وتتسع أحواشها للإبل التي تُشترى تمهيداً لإخراجها للبر، أو مُحَضَّرة من البر لتهيئتها لرحلة، أو لجلبها إلى السوق. هذا البيت أعفاه من بعض ذلك، ومن وصف بعض الغرف في بيت الفهد يتبين مدى الاستفادة منها.

بيت الفهد:

بيت الفهد هذا ملاصق لبيتنا الرئيس، وفيه قليب، وحوشان، وفيه كذلك صفاف، ورواشن، وفيه قهوة،

ومصباح قهوة، وقبة، وسطوح، وبابان أحدهما (باب القهوة) للرجال؛ والآخر للبيت عموماً، وصفة للبقرة، وفيه مرحاض واحد في الحوش.

وتفصيل ذلك أن البئر ليست مشتركة، خلافاً لما كان الأمر عليه في بيتنا الرئيس، فبئر بيت الفهد لنا وحدنا، وبجانبها مصلى صغير تميزت به هذه البئر عن الأخرى، وبجانب البئر «اللزا» وهو لازم لكل بئر، يقف عليه الماتح للماء، والمالئ «للقراوة»، ولها مسبح «مروش»، ويتبعها «قروان»، «قَرو» سفلي و «قرو» علوي.

وفي الطابق الأسفل تأتي القبة، وهي نوعاً ما مظلمة، والصفّاف في هذا الطابق سبع واحدة منها في الحوش، وهذه منيرة، والأخريات مظلمات، لأنهن

في القبّة، وكانت هذه الصفاف موحشة، وكنا ونحن صغار نعتقد أنها خير مساكن للجن، ولأنها مهجورة، ولا تستعمل إلا في النادر أصبحت مأوى للقطط، وأغلب القطط سوداء، وهذا يؤكد أنهن «متجنسات» أي جنيّات، ولهذا يستعاذ منهن بصوت عال ويطردن مع الاستعاذة.

ويبدو أن الاستعاذة ثلاث مرات تعطي الحجة عليهن في أنهن لم ينصعن للنهي، ويذهبن بسرعة، ولهذا فلو أوذيت إحداهن أذى بدنياً، فإن الحجة تقوم عليها، أما إذا لم نستعذ منهن، أو لم نطردهن برفق فالحجة علينا. والطرد يكون عادة بعسيب، لأنه «يُهوِّش»، وألمه خفيف، وليس بعصا أو خيزرانة أو سوط. والصُّفَّة الوحيدة التي كان يستفاد منها كانت أقربهن لباب القبة،

وكانت توضع فيها «دِبَاب» السمن، الذي يستعمل مع الزرنيخ لطلي الإبل، و «الدَّبَّة» تشبه البرميل الكبير.

وسبب ظلام هذه الغرف أن خلف جدارها الخارجي بيت الجيران مما لا يُمكِّن من فتح نافذة يأتي لها منها الضوء، وما يأتيها من بابها قليل لأن الضوء الذي يدخل القبة نفسه قليل، ولا يكفي. ولعل ظلام هذه الغرف، وعدم تعرضها للهواء النقي هو الذي جعل استعمالها قليلاً، وقد تكون بقية المنازل في الطابق الثاني أغنت عنها، واستجابت للحاجة الملحة التي أوجبت شراء البيت وإضافته لبيتنا الأصل.

وحالة الطابق الثاني، خلاف حالة الطابق الأسفل من ناحية الإضاءة، فالغرفة في هذا الطابق سطحها يعطي فرصة لفتح «سماوة» في السقف، تعطيها ضوءًا

كافياً يجعلها مريحة للاستعمال. ورواشن هذا الطابق ثلاثة، أحدها استفيد منه ممراً يوصل إلي البيت الثاني، وروشن أصبح منزلاً مستقلاً للوالدة ولنا، والروشن الثالث أفاد عمتي موضي وخصص لها وحدها. ويقع في هذا الطابق الدرج وصالة التوزيع، ومصباح القهوة وفيه درج يوصل إلى منفوح نصف مسقف.

وهناك سطحان أحدهما فوق مصباح القهوة وبه المنفوح، وآخر فوق الصالة والغرف، وثالث فوق بعض الغرف، وهذا فيه جدار قصير كنا نطل منه على بيت جيراننا «المصلح»، ورغم تأنيب أهلنا لنا إذا اكتشفوا أننا خالفنا تحذيرهم، إلا أننا نجد في هذا متعة، لأن وراء بيت المصلح حوشاً واسعاً نرى فيه بعض ما نرى أنه يبرر عملنا هذا. ورغم أن المصلح جيراننا فإننا لم

ندخل بيتهم، ولم نتعرف عليهم، أو نستقصي عما إذا كان لديهم أطفال في مثل سننا، ويبدو أنه ليس هناك أحد يمكن أن نتعرف عليه، ونلعب معه، والأطفال هم الذين يقودون أمثالهم لدخول البيوت، ومعرفة ما بها ومن بها.

ومن السطح هذا نلج إلى سطح بيتنا الثاني، وفيه خمسة أسطح، والسادس فوق المنفوح. وهذا يؤكد التشابه في تخطيط البيوت وما يراعى فيها من الاقتصاد على المنازل الضرورية في أي بيت.

بيت الضّبط:

الضبط حي كما سبق أن ذكرت من أحياء عنيزة الرئيسة، ومن بين من يسكنه أخوالي آل قاضي، من تميم، وقد وفدوا منذ زمن من وشيقر، بلد العلم

والعلماء والخيرات، وكان للأسرة هناك أملاك ومزارع أصبحت غير مجزية بعد أن كثر أفراد الأسرة، وأذكر أن والدتي كان ينالها من هذه المزارع شماريخ معدودة، تنازلت عنها، ورجت ألا يحسب حسابها فيها.

والضّبط على أطراف عنيزة أقرب إلى أن يكون شمالها الشرقي، تحف به المزارع، مما جعل له روحاً خاصة بسبب «شراحته» لوجود المباني على ضفاف المزارع، وهذه المباني تتكون من طابق واحد، وأحواش البيوت فسيحة. ورغم رقة حال أخوالي إلا أن بيتهم كان على ثلاثة شوارع، ومع هذا لم يكن في بيتهم بئر، وكانوا يستقون من بئر مشاعة ملاصقة لبيتهم.

لقد مرّ شيء عن أخوالي وذهابي ووالدتي وإخواني إليهم لزيارتهم، أو عندما تقرب ولادة الوالدة ـ رحمها

الله[1] ـ وأود هنا أن أعطي وصفاً مختصراً، وهذا سوف يعطي فكرة من نوع آخر عن البيوت وخططها. وكان المدخل إلى البيت من الشارع رأساً إلى الحوش، ثم يدخل الداخل من الحوش إلى صالة بمثابة القبة. وفيها لأول مرة رأيت «المحزرة»، معلقة هناك في السقف في وسط القبة، والمحزرة تفيد في الشتاء ـ كما سبق أن قلت ـ في العصيد، حتى لا «يتلبّك»، والآن استغني عنها بالجبنة «كوممبير» ذات الرائحة «الصاعقة» للأنف.

وفي هذا الطابق الأرضي الذي ليس فوقه إلا السطح به أربع غرف، واحدة منها تخصص لنا عندما نأتي لزيارة أخوالي، وهناك غرفة في أعلى الدرجة التي تصعد للسطح. ولا أذكر أننا نمنا على السطح مثلما

(١) انظر ما سبق (الجزء الأول)، ص (٢٦) وما بعدها، و (٢٢٥) وما بعدها.

كنا نفعل في بيت أهلي الخويطر، لأن حوش بيت الضبط واسع و «نَفْه»، يطرقه الهواء المنعش الذي يحمله النسيم من المزارع القريبة من البيت.

ويبدو أن القهوة وغرفتها، وحوشها وغرفةً فيه، قد أضيفت جميعاً إلى البيت، ولعل أرضها هي التي سمحت بأن يكون البيت على ثلاثة شوارع. والإضافات تحدث عندما تكبر الأسرة، ويكثر عدد أفرادها، ويكبرون كما حدث لبيت أهلي الخويطر، فأول توسعة لبيت الهفوف كانت بإضافة القهوة وحوشها ومنفوحها وسطحها، وهذا البناء هو الذي تكلمت فيه عن جدي، وحثه والدي، وهو يراقب العمال، بأن يبتعد عن الشمس[1].

(١) انظر ما سبق (الجزء الأول)، ص (١٣٤).

قد يكون ما ذكرت عن بناء البيوت، والخطط التي توضع لها، ومحاولة إعطاء فكرة عن نوعين منها في حيين مختلفين، مملاً، ولكن المتمعن من أبناء اليوم سوف يدرك النعمة التي هو فيها، والإمكانات المتاحة له، ووصف بيوت الطين تسجيل لها لأنها في طريقها إلى الانقراض، بسبب ضعف مادة البناء، وهي الطين، وعدم الصيانة، والتخطيط الحديث الذي يكتسحها اكتساحاً.

لن يتصور أحد أن عنيزة (باريس نجد !)[1] لم يكن فيها كرسي واحد، ولم نعرف في صغرنا شيئاً اسمه كرسي، فقط عندنا «حبوس»، والحبس بناء من طين يرتفع عن الأرض بمقدار ما يرتفع الكرسي، والحبوس

---

(١) هذا اسم أعطاه عنيزة الكاتب المعروف أمين الريحاني.

إما أن تكون عند باب المسجد يجلس عليها الناس، يتواعدون عندها، أو يجلسون عليها بين الصلاتين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. ومن أشهرها تلك التي تكون عند المسجد الجامع، وشهرتها وأهميتها تأتي من أن الأمير والقاضي يجلسان عليها بعد صلاة العصر، وفي الصباح الباكر أحياناً، القاضي يقضي والأمير يأمر بالتنفيذ.

والاستعمال الثاني لها عندما تكون عند أحد البيوت، يجلس عليها بعض كبار السن، خاصة في الصباح في الشتاء، يستمتعون بالشمس، ويسمى المكان «بالمشراق».

وفي مكة ـ شرفها الله ـ لم نر الكراسي التي نراها اليوم، وكان في مكة «كراويتات» جمع (كراويته)

وهي كرسي كبير من خشب مرتفع نوعاً ما، ورجل الإنسان إذا جلس فوقه لا تمس الأرض، والجلوس عليها كالجلوس على الأرض، إلا أنها تكون منسوجة من الحبال في القسم الذي يُجلس عليه، أو يوضع عليه «شلتات» جمع (شلته) تزيد من راحة الجالس. وتكاد كل القهاوي العامة تعتمد عليها. وقد توضع هذه الكراويتات في مداخل البيوت، أو في «المقاعد» (الغرف)، يجلس عليها صاحب البيت أحياناً مع ضيوفه، وأحياناً إذا كان كبير السن هي مكان جلوسه الدائم.

وعندما أفكر فيما هو متوافر الآن من لوازم الحياة مما لا أجد أنه كان معروفاً في تلك الأيام وإن عُرف شيء منه فلا يُرى إلا في مناسبات نادرة جداً، قد لا تحين إلا

بعد سنوات، أشعر أن ابن اليوم سوف يندهش بحق، فالكؤوس (جمع كأس) لا تُعرف في عنيزة، وشرب الماء أو غيره له «طياس» جمع «طاسة» من معدن تكبر أو تصغر أو «غرشة»، وأظنني رأيت عدداً محدوداً مما يشبه الكؤوس في رف عال في غرفة جدتي، ولم أره يستعمل!

أحببت ذكر هذه الأمور ليعرف القارئ أن القوم كانوا يكتفون بالمجزئ، ويقنعون بالضروري، ليس فقط في بناء البيوت وسعتها، ومادة البناء فيها، أو ما تحتاجه من نجارة تخلو من الزبرقة والزخرفة الحديثة، وإنما يغنيهم أي شيء يقضي حاجتهم. وكانوا حريصين على ما يجدونه كافياً مما تنبته أرضهم، أو تصنعه أيديهم، مستغلين كل مادة ممكنة طيناً، أو غريناً، أو شَعْراً، أو صوفاً، أو شجراً، أو حجراً.

خارج البيوت:

تحدثت عن داخل البيوت التي كنا نعيش فيها باختصار، وجعلت من البيوت التي عشت فيها نموذجاً لبعض البيوت في عنيزة، والآن سوف أخرج إلى الشارع لأرى ما فيه، وقد تحدثت عن ضيق الشوارع، وإن كنا لصغر أجسامنا حينئذ نظنها واسعة، وبعضها أوسع من بعض، فالفرعي منها لا يكاد يسمح لمرور اثنين معاً في بعض الأحيان، وبعض هذه الشوارع ينتهي عند أحد البيوت فلا ينفذ، ويقال عنه إنه سوق «سدّ». أما ما يعد رئيساً فقد يسمح لمرور جملين أو بقرتين. وليس في نجد، مثل الحجاز، أدوات قياس، فالبناء يأتي حسب التقدير النظري، وقد يستعان بخشبة أو أداة مما يماثلها، ولهذا يجد الناظر من بعيد إلى الجدران أن بعضها غير

مستقيم، وإذا حاول المهندس أن يضع بعض النتوء لتكون حلية فإنها لا تأتي منتظمة أو متماثلة بدقة. ومع هذا فقد كنا نعد هذه البيوت مستقيمة ونعجب بها.

ومن مظاهر الشوارع «القبب»، وهي سقيفة توصل بين بيتين كالجسر، وهي في العادة تكون تابعة لأحد البيتين اللذين تصل بينهما. وهي مفيدة في أنها تضيف غرفة في الطابق الثاني، ومفيدة للشارع ومن يستفيد منه، وهي مكان مفضل للصغار وقت القيلولة، يلجؤون إليها هرباً من الشمس، ويدخلون هم وغيرهم تحتها في وقت الأمطار، وهي مقر مفضل للعصافير تفرّخ بين فجوات خشب سقفها، وما فيه من عسبان، ويضع فيها أهل الاحتساب في الليل سراجاً ينير طريق المارة.

والشوارع كلها ترابية، فإذا جاء المطر، و «صبّت المثاعب»، ونزل الماء من المرازيم أصبح السير فيها غير مريح، ومع نزول الأمطار يصبح الشارع مرتفعا من الجانبين، ويصبح وسطه منخفضاً نتيجة استمرار جريان الماء عليه. ولم نر ونحن في عنيزة الأسفلت، ولا نعرف ما هو، ولا الإسمنت إلا من شيء مقداره لا يملأ كف اليد يثبّت به «بلبول» (بزبوز) القرو، ولا أعرف من كان يجلبه أو يبيعه.

في عنيزة ما يشبه الميدانين، أحدهما يسمى «المجلس» وهو أفسح فراغ فيها، فيه الجامع، وفيه «الصفّة» (الحَبْس أو السجن) وعلى جوانبه بعض بيوت كبار القوم، وقريب منه بيت الأمير. وفيه يعرض «الجلب» من جمال وأبقار وأغنام، وتباع فيه بعض الأشياء

المهمة مثل التركات. وعلى جانب منه دكاكين، لها أهمية بارزة، تمتد وتتصل إلى أحد الشوارع الذي يُعد رئيساً، وهو سوق «المسوكف» ولعل أصل الكلمة «المسقّف». وعلى جانبيه دكاكين مهمة جداً، ويمتد من جهتين الأولى تؤدي إلى سوق الهفوف وهو شارع مهم كذلك، والثاني إلى «الحيالة» وهي الميدان الثاني، وعلى جانب منه مكان مسقف لدكاكين «القصاصيب» (الجزارين) وبائعي الأعلاف، والفسحة التي أمام هذه الدكاكين تباع فيها الأعلاف عصراً، وتكون مكتظة بالباعة والمشترين حينئذ.

وبعد:

هذه هي البيئة التي عشت فيها، وهذا هو المحيط الذي هيأني للمستقبل، وترك طابعه في جسمي

وفي نفسي، شظف العيش فيه واضح، والبساطة لا تنقص جانباً من جوانبه، فيه معاناة، وفيه متع، وإذا التفتُّ إلى الخلف لأنظر إليه، وأجتر ذكريات الصبا فيه، أجد متعة لا تعد لها متعة، انتقل لثوان إلى عصر الصغر بما فيه من البراءة، والاستعداد لقبول ما يأتي، وعدم العلم بما هو مفقود، ألمح هذا الماضي في بعض تصرفاتي اليوم، والنظرة إلى نفسي والنظرة للآخرين، يمنعني ملمح في ذلك الماضي من الإقدام على أمر ما، ويحثني ملمح آخر على الإقدام، والخوض في بحار طوق النجاة فيها صدى ذلك الملمح، يحيط بذلك ثقافتي اليوم ومسؤوليتي تجاه من حولي من أهلي وأصدقائي وزملائي، ومن لهم في عنقي حق عمل.

الذكريات جميلة، فيها لذة إن كانت مفرحة لأن

شعوري بها اليوم امتداد لشعوري بها بالأمس، وإن كانت مؤلمة فتذكّر شدة الألم يوقظ إحساسي بأن هذا كان في الماضي وانتهى. لهذا أُشَدُّ دائماً إلى التاريخ وإلى التراث، وأُشَدُّ أكثر كلما أوغل التاريخ في القدم، أو بَعُدَ زمن الأثر، وكلما كان الأثر ساذجاً في مظهره، غير متقن في مصنعه، طفيفاً في فائدته، زادت قيمته عندي، لأني عشت في زمن يقرب مما عاش فيه أصحابه، وما استعملوه له.

أمور متفرقة:

هناك أمور دخلت استطراداً في أثناء الحديث فرأيت نزعها ووضعها في مكان أفضل لها مما نزعت منه، ومن هذه الأمور:

(أ) الحلاقة :

كلما رأيت الشباب اليوم، و «تقليعات» الحلاقة التي يختارونها لمدة معينة، ثم ينتقلون إلى غيرها، وكلما نظرت إلى الصغار وما يضعونه في رؤوسهم من مواد تجعل مقدمة الشعر تقف كما يصوّر رسّامو «الكريكاتير» شعر المرتعب، تذكرت ما كنا عليه نحن وآباؤنا من حلاقة شعر الرأس في كل شهر تقريباً بالموسى. ودهشتي اليوم مما يفعله الصغار والشباب أكبر من دهشتي عندما انتقلنا إلى مكة، ورأينا الحرص على التواليت، وهي «قَصَّةٌ» معروفة، ورغم انتشارها إلا أن بعض المحافظين لا يرون أنها مظهر رزانة وفضيلة، وكانت نسبة من يختارها لشعره قليلة، وكان المتبع غالباً حلق الشعر بالموسى، ويُعد ذلك حلاقة نظيفة.

لم يكن في عنيزة حلاقون في دكاكين يأتي لهم الناس، ولم تكن الحلاقة مهنة ينقطع صاحبها لها، كانت تأتي رفداً للحلاق بجانب عمله، فكان حلاقنا مؤذن مسجد وصاحب دكان.

ولبيوت الأسر حلاقون مختصون يأتون في الغالب إليهم في كل شهر، بعد صلاة الظهر «يتقهوون» ويحلقون للصغار والكبار، وينتهون من مهمتهم قبل أذان العصر. وأذكر حلاقنا، وكنيته، أبو صالح، كان يأتي إلى بيتنا بعد صلاة الظهر، وكانت الحلاقة تتم في حوش القهوة، ويبل الرأس، ثم يدرج عليها قليلاً من الصابون ثم يفرك الرأس فركاً بِيَدٍ مثل «المدمثة» ـ رحمه الله ـ بحيث تدمع أعيننا، ثم يأتي بالموسى ويأخذ في الحلاقة، فتدمع أعيننا مرات ومرات من الألم «للدثارة»

الموسى، التي يسنها بقطعة من جلد البعير، وادّعي أنا أنها لا تزيد عن تنظيفها لا شحذها. فإذا انتهى تنفّسنا الصعداء، ثم بدأنا نحمل همّ المرة القادمة.

ويستوجب الأمر أن يُحفر للشعر حفرة، مثل الأظافر إذا قصّت، ويدفن الشعر، ويُطمّ التراب عليه. وفي مكة ـ شرّفها الله ـ تُسَنُّ الموسى حقاً، يأتي أناس من البخارية، يحمل أحدهم آلة الشحذِ والسَّنِّ على ظهره، وينادي: «سِنُّ سكين، سِنُّ مقص»، فإذا سمعه ذو حاجة إلى سن آلة عنده ناداه، فوضع عدته على الأرض، وهي ذات أرجل طويلة، فيُعمل رجله لتحرّك عجلة السَّن، وترى الشرار يتطاير، وترى فعلاً أن الرجل شحذ السكين أو الموسى أو المقص. أما في عنيزة فالجيّد من الحلاقين من عنده حجر صوّان يسن

به موساه، وتسمع منه صوتاً نقلّده بقولنا: «تِسْعَ التِّسِنْ.. تِسْعَ التِّسِنْ» عدة مرات، ونخرج هذا الصوت مشابها لصوت المِسَنّ.

(ب) القداح:

مر بعض الحديث عنها[1]، ولكن للحديث بقية، لتكمل الصورة، ويتحدد الأمر، وللتذكير عنها فإنها تَصَرُّفٌ ساذج من بعض الشباب في سنٍّ معيّنة، وفي مواسم معينة. يبدأ الصغير مقلداً الكبار، ولكن بما يستطيعه ويتحمله، فيأتي بعود ويحكه في حجر حتى يصبح حاراً فيكوي ذراعه به، حتى يسم الجلد، فيفخر بأنه فعل شيئاً أوصله إلى مرحلة الرجولة.

أما من هو أكبر منه، فيطوي خرقة بحجم «السِّجارة»

(١) راجع ما سبق: ص (٧٣) الجزء الأول.

مرتين، ويضع أحد أطرافها على ذراعه، ثم يوقد ناراً في طرفها الآخر، فتبدأ جمرة هذه النار تأكل في الخرقة، ويصل دخانها الحارّ إلى جلده، وتقترب الجمرة من الساعد، فإذا انطفأت النار بفعل الندى الذي تجمع على الجلد نتيجة الحرق، قَشَرَ الجلد، وحشى الحرق بالرماد المتخلف، وإذا تدارك نفسه وأطفأها قبل أن تصل إلى الجلد ضمن أنها سوف تترك أثراً يكفيه للمفاخرة.

أما إذا وصلت الجمرة إلى الجلد فلا فخر فوق فخر صاحبها، وتسمى القدحة «مُعبِّسة» أو «مُلعِّسة»، ومعبسة جاءت من «العبسة» النواة، لأن اللحم ينتأ ويبرز مثل النواة، فيما بعد، وملعسة تعني ملساء. والتعبيس والتلعيس نياشين قد حفرت في الساعد، وأحياناً يتبع ذلك السّاق.

والتعبيس ليس هو الوحيد في مجال المفاخرة، فإذا كان هذا يخص النوع فهناك ما يخص العدد. فإذا جلس الشباب للمفاخرة في هذا المجال بدأ العدّ، وصاحب الرقم الأعلى يُتوَّج بطل هذا العمل. وأحياناً لا ترى جلد الساعد من كثرة القداح عليه، فبعضهم ينتقل إلى الأيدي فيقدح بين البراجم!.

إن من وراء هذا جهل مسيطر على ذهن هؤلاء الصغار، وقبلهم آباؤهم وأجدادهم، فهناك عقيدة أن القداح في اليد تعطيها ثباتاً عند الرمي بالبندق، فلا تهتزّ اليد، وتُضمَن الإصابة، أما القداح في الرِّجل وفي الساق، فهي تفيد عند الركض، فصاحبها لا يسبق ولا يلحق! والأقرب إلى العقل، لو كان هناك التفات للعقل، أن هذه القداح هي عوامل إعاقة، ووسائل ضرر.

ومن حسن حظي أني تركت عنيزة قبل أن أقع في هذه الفضيلة الزائفة، ولعل هذا راجع إلى أني لم أكن في سنّ تسمح لي بمثل ذلك، مع أن هذه السن لم تكن مانعاً فهناك من هو في سني، أو أكبر مني قليلاً قد قدّحوا. أما السبب الرئيس في نظري فهو أني أصحب جدي، بعد أن كفّ بصره، إلى المسجد، فهو في أول الطريق يضع يده على ذراعي الأيسر، وبعد أن ندخل، يفعل مثلما فعل قبل خروجنا من البيت، ويضع يده على ذراعي الأيمن، رحمه الله، هذه من أفضاله عليَّ التي لا أحصيها.

كنا نفرح عندما نسمع أنه في المكان الفلاني جماعة يقدِّحون، فنذهب راكضين هناك، كل واحد «عاض شليله» أي طرف ثوبه، حتى لا يعيقه عن سبق الآخرين،

وكل واحد لا يريد أن يفوته أصغر جزء من عمل القداح.

وفي يوم من الأيام سمعنا عن «جلسة قداح» على طرف «السلسلة» أحد أحياء عنيزة، فاندفعنا إلى هناك، وكان هناك «جذعان» (فتيان) أكبر منّا سنّاً قد اجتمعوا هناك، وبدؤا يقدحون، وكان بعضهم يتحدى بعضاً أيهم يحدث أكبر قدحة، ويزيد أكبر عدد عنده عما قبل. وكان من بين هؤلاء الفتيان أحد أقاربنا من أسرة القرعاوي، فتناول «غترته» بكاملها، وطواها طيّاً محكماً، فِعْل مجرب واثق من عمله، ووضعها على عضلة ساقه، ثم وضع الجمرة على طرفها الآخر، فأمسكت النار في الغترة، وأخذت ترعى فيها قليلاً قليلاً، والدخان «يعكم» منها، وأخذ القماش يصغر

تدريجاً، والدخان الحار بعضه يتسرب إلى جلد ساقه، وهو يتصبر ويتجلد، ويحاول أن تكون ملامحه ملامح فَرِحٍ، لا ملامح متألم يقاوم، وكلما اقتربت النار من نهاية القماش المطوي زاد ألمه، حتى أكلت النار الغترة بكاملها، ووصلت إلى اللحم، وانطفأت بعد أن انتهى وقودها، وقابلتها نداوة الحرق في اللحم.

بهدوء تام أزاح الرماد جانباً، وبيد ثابتة أزال الجلد المحترق، ثم وضع رماد الغترة على الحرق، ولبَّده تلبيداً هادئاً، وكأنه يربت على كتف طفل لينام. ثم وقف وركض إلى آخر السلسلة، ثم عاد إلى آخرها من الجهة الأخرى. فعل هذا عدة مرات، والعيون ترقبه، بعضها يغبطه، وبعضها، مثل عيوننا، ترثي له، وصار حديث دوائر الشباب.

ومر ما يزيد عن أربعين سنة، واجتمعنا في الرياض، وذكّرته بما كنت رأيت، فكشف عن ساقه، وأراني أثر الحرق، لا يزال واضحاً، وقد رأيتها مرة أخرى منذ سنتين. أطال الله عمره على طاعته، فهو من الأقرباء الأحبة.

(ج) القداح والكُم القصير:

القداح هذه شاهدت بعيني بعض أضرارها الواضحة، كان لي صديق يدرس ضمن طلاب البعثة في جامعة الملك فؤاد (جامعة القاهرة اليوم)، وكنا معاً في مساكن البعثة، في شارع الروضة، قريباً من «كوبري عباس» الموصّل بينها والجيزة. وشاطئ النيل هناك يصبح في الليل مقصد المتنزهين «يذرعون» الشاطئ جيئة وذهاباً، ولا يخلو الأمر من بعض الاستعراض

في القوة البدنية، أو جمال الوجه، أو رشاقة الجسم، أو بهجة الملابس. وكان الشباب يلبسون قمصاناً «بنصف كُمّ»، لأن الوقت صيف، وهذا هو المتوقع من كل متفسح، والمقبول ممن يطرقون هذا المكان. ولم يكن بين المتنزهين من يلبس قميصاً بكُمّ كامل طويل إلا صديقي هذا، فهو لا يجرؤ بحال من الأحوال أن يلبس إلا قميصاً طويل الأكمام، لأن هذه الأكمام الطويلة تغطي السوءة المنتشرة على ذراعيه، ولو رآها أحد من إخواننا المصريين المتنزهين لظنها جَرَباً، أو أنه تعرض لحريق مخيف. ولو اقتصر الأمر على المتنزهين من الرجال لهان الأمر، ولكن الخوف من أعين الشابات، اللواتي يحاول الشباب أن يظهروا أمامهن بأوفى درجات الأناقة، ووسائل الجذب، وهذه غريزة وضعها الله في كل من الجنسين، حتى يعمر الكون، ولا ينقطع النسل،

وليست هذه الجاذبية، والركض حول توافرها مقصورة على ابن آدم؛ ولكنها تعداه إلى الحيوان والطير، وغير تلك من مخلوقات الله الصغيرة والكبيرة، فهي كذلك تقوم بحركات لتجذب الجنس الآخر.

(د) شيء من التأديب :

نقابل في صغرنا التأديب، وتختلف أنواعه حسب السن والجُرم، وقد مرّ شيء من هذا. ومن الأمور التي تُعد عند أهلنا من الأسس مراقبة تصرف الصغار، وعدم خروجهم عن المألوف من العادات والتقاليد، لهذا في بيت الخويطر في (الهفوف) تُلاحظ كل حركة خارجة عن المسار المعهود، أو عن المستوى الذي يريده أهلنا لنا، فهذا الفعل لا يليق بأبناء الحمائل، وهذا الفعل لا يفعله إلا «الصَّلَب» (الغجر)، ولا تركضوا

فهذا بيت وليس شارعاً، ولا ترفعوا أصواتكم فإن أنكر الأصوات لصوت الحمير، ولابد من الهدوء التام وقت القيلولة بالذات مادام الكبار قد ناموا، أو في البيت مريض يجب أن لا يزعج، أو افعلوا هذا ولا تفعلوا ذاك.

(هـ) الضبط ومزارعه :

ذكرت سابقاً بعض الأمور عن حي الضبط، حيث يسكن أخوالي، والحديث عنه ممتع لما فيه من ذكريات حُفرت في ذاكرتي بأحرف بهيجة. ففيه وفي مزارعه أجد ما لا أجد في بيت أهلي الخويطر في الديرة في حي الهفوف، ففي الضبط ما يشرح الصدر لاتساع المحيط، ووجود ما لا يوجد في الهفوف. فأمور الزراعة كلها فيها جاذبية للصغير، السواني بما فيها البئر، والماء فيها

«يصطفق»، والغروب تنزل وتصعد، وأصوات محّالها ودرّاجها تملأ الأفق، والدواب في المنحاة وهي تمتح الماء، جيئة وذهاباً، والصبي الذي يحثها، على سرعة المشي، وعدم التواني، وبيده عصاه، وأحياناً يضعها خلفه على رقبته معترضة لتساعده على تحمل الجهد. والماء في «اللزاء» وفي البركة، وفيه حصيات بألوان مختلفة جاءت من طبقات أرض البئر وجوانبها، منها ما لونه أحمر نجد لذة في الكتابة به علي مسطحات بعض الأماكن، وهناك الرايس الذي يعدل الماء الآتي في الساقي من البركة، يوجهه لهذا الحوض أو ذاك، وذاك الذي «يُعشّب» الأحواض ينزع منها الحشائش الغريبة غير المفيدة.

وحفيف أغصان النخيل، وشجر الأثل الذي يوضع

دائراً مع سور المزرعة، والطيور المغردة المنتقلة من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى شجرة، وأصوات العصافير هناك فوقها نجد أنها تختلف عن أصوات العصافير في الديرة، أو لعل هذا يخيل لنا وليس حقيقة، والإبل والأبقار والأغنام والحمير من مكملات المزارع. وما يقوم به كل واحد منها من دور يخدم المزرعة أو أهل المزرعة، شيء لا نمل متابعته بتمعن ومتعة. والعاملون من أصحاب المُلك، أو الذين يساعدونهم، حركة دائبة، وعملهم منتظم.

وهناك الأحواض وما في مائها من دويبات يساعد نموَّها الماء الآسن ومنها العلق الذي يتراوح حجمه، ربما أن ذلك حسب عمره، فمنه الصغير ومنه ما يزيد طوله عن الأصبع، ولا نمل رؤيته، ورصد حركاته، وسباحته.

ونستعيد بعض ما يقال عنه مما قد يكون حقيقة وما قد يكون خيالاً سبح صاحبه في أجواء من أفلاك واسعة.
ومن ذلك ما يقال من أن علقة تطفّلت فدخلت حلق إنسان شرب من الحوض الذي كانت فيه، فوجدت في بلعومه مرتعاً خصباً لها، فاستقرت هناك تشرب من دمه ما شاءت لها شهيتها، فنمت وازداد حجمها مما منعه من بلع الطعام، مع ألم شديد. وعندما استعين بطبيب شعبي حكيم أخذ قليلاً من «الشبا» المخضر، وهو الطحلب الذي ينمو في المياه الآسنة، وقرّبه من فم الشاكي، فشمت العلقة رائحة بيئتها الطبعية، فتركت مكانها، واندفعت إلى حيث «الشبا» وبهذا استراح المريض، وانتصر الطبيب، وغُلبت العلقة.

لعل الهدف من هذه القصة هو تخويف الصغار من

الشرب من الأماكن غير النظيفة، ولكنا كنا نتجنب هذا بوسيلة نظنها تقينا شر بلع العلق، فنجعل طرف «الغترة» بين فمنا والماء، نستعملها «صفايا» يمنع العلق، ولم نفكر في بيضها الذي قد يمرّ من بين نسيج الغترة، وهذا اضطر أهلنا إلى التحذير من جديد من بيض العلق أو غيره. وقد اقتنع بعضنا وبعضنا يعميه العطش عن أن ينصاع للنصيحة.

وهذا الاتساع الذي كنت أراه في حي الضبط مزارعه كان برؤية عين طفل تبين له، بعد أن كبر، أن الأمر يختلف، وأن الواسع لم يكن واسعاً، والعظيم لم يكن عظيماً، وقد تأكد هذا عندما أرادت وزارة المعارف أن تبني مدرسة تحفيظ القرآن في الضبط، فلم يكف حي الضبط بكامله وأكملت المساحة من مزرعة

الوسيطا التي بجانب الحي. وبهذا دخل بيتُ أهلي القواضي في المدرسة، وأصبحت الصُّفّة التي ولدت فيها فصلاً دراسياً، أو ممراً في المدرسة، أو غرفة من غرف الإدارة. وأتمنى أن أعرف الفصل الذي دخلت فيه الصفة التي ولدت فيها.

وكلما تمنيت ذلك تمنيت كذلك أن أرى مزرعتي «غبنة» و «خبيقة» التي فهمت أنهما لا تزالان قائمتين إلا أنه غرس بهما الآن نخل، فلم تعودا أرضين للتبطيخ كما كانت في صغري، وسيتبين لي عندما أراهما الآن مدى بعدهما عن الضبط أو قربهما، ومساحتهما بتقديري اليوم.

(و) الدلو والغرب:

الدلو أراه في بيت أهلي الخويطر يومياً واقفاً معلّقاً أو في عمل، يُمتح به الماء من البئر، وعندما أتصوره

اليوم أدرك مدى إتقان صانعه له، ووفائه بالغرض المصنوع من أجله، فمتانته لأنه من جلد البعير تسمح بتحمله لهذا العمل، وشكله يشبه «السطل»، وأعلاه أوسع من أسفله، وقاعدته مقواة بشريحة من جلد البعير، وكذلك أعلاه، حتى يضمن عدم انثنائه، وقد ثُبّت في الفتحة التي في أعلاه خشبتان على شكل صليب، تسمى العرقاة، والغرض منها أن تبقى فتحة الدلو فلا تنثني، وفي الوقت نفسه تكون مهيأة لأن يربط بها «الرشاء»، وهو الحبل الذي يساعد على إنزال الدلو إلى البئر ورفعه عند متح الماء.

والرشاء حبل «مفتول» من ليف النخل أو من عذوق النخل بعد «دقها» أي طرقها بالكابون، وهو على شكل مطرقة رأسها كبير مصنوع من الخشب،

والرشاء خشن نوعاً ما، ولهذا يتفادى من يستعمله أن ينزله إلى البئر بسرعة حتى لا يجرح راحتي يديه. وأحياناً «يُمرس» الرشاء، أي يخرج من مجراه في «المحّالة»، وحينئذ يحتاج إلى جهد ليخرج من هذا المخنق إلى موقعه الطبعي. وأحياناً يحدث «الإمراس» هذا نتيجة انفلات الحبل من الممسك به فينزل الدلو بسرعة.

ومعرفتنا نحن صبيان الديرة، بالدلو تفوق معرفتنا بأجزاء الغرب وأسمائها، وهي طريفة بالنسبة لنا، فكنا نهتم بالنظر إلى الغروب، وهي دلاء السواني، لأن فيها فنّاً وطرافة. فهي طويلة ومصنوعة من الجلد، وهي تنثني من الوسط حتى تؤدي الغرض منها كاملاً، والجزء الأول الأعلى أوسع من الجزء الثاني الأسفل،

والأول يسمى «القبة» والأسفل «الكم» وهو فعلاً يشبه الكم.

والغرب، لأنه لدن، ينفرد عندما يحين إفراغ الماء منه في «اللِّزا»، وهو الجزء المجاور لشفة البئر، ومنه يذهب الماء إلى الساقي ثم إلى البركة، ومنها إلى الأحواض، ويتم ذلك بترتيب متقن، ولكل خطوة صفة، ولكل خطوة أو مكان اسم يعبر عن الغرض. وفي أعلى الغَرْب «عِرقاة» كذلك، ويوضع عند هذه الفتحة «ثقالة» وهي حجر معين، يختار بدقة، يساعد الغرب عندما يلامس الماء أن يغوص تحته، ليُضمن امتلاؤه. ويمرّ الحبل الذي في أعلى الغرب عن طريق «المحّال» في أعلى عدة البئر، والحبل الذي في أسفله يمر فوق «الدّرّاج». وقد أتقن العمل بين الحبلين، حتى

يؤدي كل واحد منهما عمله على الوجه الأكمل.

والرشاء يختلف في المادة التي صُنع منها عن «السريح» الذي يمر من فوق «الدرّاج» (مفردها درّاجة) فالثاني من جلد البعير، ويعالج عند اختياره لهذا الغرض معالجة خاصة، تجعله مهيأً لهذا الغرض، ويؤديه بكفاية، وعندما تصل الغروب إلى «الكافّة» وهي شفة القليب يصب الماء من «الكم»، ثم يرتفع أعلى الغرب لضمان أن لا يبقى في الغرب ماء.

وهذا التفاوت في تصميم الدلو والغرب، جاء من أن الدلو واحد يستطيع الماتح به أن يتصرف فيه بيده، لأنه لا يحتاج في كل مرة إلا إلى ملئة مرة أو مرتين أو ثلاثاً، أما الغرب فالأمر خلاف ذلك، فهو أولاً كبير، وثانياً قد يكون هناك من الغروب ما يصل إلى ثمانية

في البئر الواحدة، مما يجعل الأمر صعباً على إدارة الأمر باليدين، ولهذا اخترعت هذه الطريقة الآلية «أتوماتيك» فما على «الساني» إلا أن يتابع حركة الدواب الماتحة.

ومما كان يعجبنا، نحن الصبيان، صوت المحال الموسيقي الرتيب، عند نزول الغروب إلى القليب وعند صعودها، ولكل نغمته، وكنا نشعر بالفرق بينهما وهو أمر واضح، ولكن الأمر العميق في تفكيرنا هو أننا كنا نتخيل صوت المحال والغروب نازلة أنه صوت مستعجل، وفيه بهجة لأن الغروب فارغة، أما صوتها صاعدة فهو أشبه بأنين جريح أو مريض، أو أسير، وبمجرد أن تفرغ الغروب ما فيها تبدأ نزولها مرة أخرى، فكأن هذا الأسير أطلق من عقال، وهذا الجريح التأمت جراحه فجأة، والمريض زال عنه المرض تماماً. وكنا

نقضي ساعات ونحن نتابع هذا التتالي وهذا التباين. ما أحلى تلك الأصوات خاصة من بعيد، وخاصة في الصباح المبكر.

لهذا كان «الضبط» محيطاً فيه بهجة لنا، وفيه ما يشحذ ذهننا للتفكير، لأن رتابة ما كنا نراه في الديرة لا يوحي لنا بما يوحي به هذا الجديد الذي لا نراه كل يوم، وقد لا نراه إلا بعد شهر. هذه الأمور تجعلني اليوم انتقل في تفكيري دون وعي مني إلى الضبط وأيامه.

ومادمنا في سبيل الحديث عن الماء ومتحه، والوسائل المهيأة لذلك، والحضارة التي كانت تغلف هذا كله، والفن المهني الذي كان يحكمه، فهناك خدن لهما يقوم بعمل مماثل لهما وهو «القلص»، والقلص دلو مصنوع من جلد له فم واسع مخصص لمتح الماء من

آبار الصحراء لسقي الإبل، ولملء القِرب وهو يُحمل على ظهر البعير هو والحوض الذي يصب فيه الماء عندما يُمتح من البئر لتشرب منه الإبل.

والقلص دلو كبير، ولين إذا قورن بالدلو المعتاد، وفي الغالب يستعان بالإبل أو الحمير على رفعه من البئر إذا امتلأ، ثم يستقبله رجل أو رجلان ليفرغاه في الحوض المقام على أرجل خشبية صنعت بطريقة تجعله يؤدي الغرض، ولا يزعج في حمله على ظهر البعير، وعمله فن يخدم الغرض المصنوع من أجله. وبعض آبار الصحراء عميقة، ولهذا فإن طول الحبل وقوة الدابة مطلوبان لمقابلة المتح وإتقانه.

وقد ينصب على البئر في الصحراء «محّالة»، وقد لا يحتاج الأمر إلى ذلك، خاصة إذا كانت شفة البئر

ضيقة نوعاً ما، فالماتح «يفحج» فوق الفوهة بسهولة، أي يقف فارداً ساقيه عليها.

(ز) نفقة لم أذكرها :

لم أذكر هذه النفقة، لأني نسيتها عندما كنت أتحدث عن الهفوف، وبعض جوانب حياتي في تلك السنين، تذكرتها الآن عندما عدت في حديثي عن الضبط إلى الهفوف. ففي السنة التي سبقت السنة التي سافرنا فيها إلى مكة أنا ووالدتي وأخي وأختي، أو السنة التي قبلها، أو لعل ذلك كان بعد عودة والدتي من الحج في عام ١٣٥٣هـ.

أذكر أني، بتوجيه من الوالد، كنت أذهب بين وقت وآخر إلى دكان العم صالح العبدالله الحسون، وآخذ منه بعض الريالات التي لا أذكر الآن عددها،

وأسلّمها للوالدة، ولعل توجيه الوالد هو أن أذهب إليه كلما احتاجت الوالدة إلى مبلغ، ولابد أنها كانت تصرف منه على احتياجاتها واحتياجاتنا، واحتياجات جدي، وربما عمتي كذلك.

وقد تأتي المبادرة من العم صالح حينما يأتيه مبلغ من الوالد لتسليمه لنا. وهذا يؤكد أن الوالدة كانت تحت رعاية الوالد اليقظة، وحرصه على ألا تحتاج إلى شيء، خاصة وأن زوجتيه في مكة تحت كنفه ورعايته طوال الوقت، وأن بقاء الوالدة في عنيزة هو لرعاية جدي، وقد قدّر الوالد تضحيتها هذه إلى أن رأى ـ رحمه الله ـ أن مصلحتنا أنا وحمد تكمن في انتقالنا إلى مكة للدراسة التي لم تستكمل مدارس عنيزة مراحلها التي وصلت إليها مكة ـ شرّفها الله ـ.

(ح) العسل والجبن والبطاطس:

أستغرب الآن كلما تذكرت أننا في عنيزة لم نر العسل أو الجبن، مع أن تربية النحل لا تكلّف شيئاً، والعسل مصدر غذاء مفيد جداً، وفيه شفاء بإذن الله. وكنا نسمع أن العسل شيء يشبه دبس التمر. ومثل العسل، في عدم وجوده، كالجبن، وقد كان بإمكان بعض الأسر الموسرة، والحليب عندها متوافر، أن تصنع منه جبناً خاصة أولئك الذين زاروا الهند والعراق والشام، وأقاموا هناك، وعرفوا فائدته، وحمدوا طعمه، ومقامه مقام الإدام على بعض الموائد، وفي بعض الأوقات.

وأستغرب كذلك من عدم زراعة البطاطس، مع سهولة زرعه، وما فيه من فائد غذائية تغني بالمادة

النشوية التي فيها عن الأرز الذي لم يكن أكله شائعاً إلا في بعض الولائم، وبكميات محدودة لا تزيد عن أن تغطي وجه الإناء.

وزراعة البطاطس لا تكلف كثيراً، وقد كان بالإمكان أن يزرع البطاطس على أطراف الأحواض فيشرب من فائض الماء. ولم يكن من الصعب إحضار بعض البطاطس وزرعه لأنه مثل البصل يتحمل النقل. وأحياناً يُنَبِّت وهو في المخازن، ولو بدئ بزرعه تجربة لأدركت قيمته وسهولة جلبه وزرعه، ولانتشر بسرعة، وهمّة الرجال لم تعجز عن جلب غرسة نخلة البرحي، فقد أحضرها أحذ ذوي العزم من أهل عنيزة من البصرة إلى عنيزة، فكانت ذات بركة عميمة، انتشرت بسرعة لأنها تعطي من «فصائلها» (فراخها)

ما يعود بالربح على الفلاح قبل أن يبدأ طلوع الثمرة. والذي نقلها من البصرة على ظهور الإبل رجل عرف قدرها، وعظم فائدتها، ومدى جودتها. ويقال إن من جلبها ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ جلب منها ثلاث غرسات، ماتت واحدة وسلمت اثنتان، فكانت تلك أصل ما هو في كل مدينة في المملكة تقريباً، وتأتي نخلة البرحي في مقدمة النخيل غرساً وجنياً وأكلاً وخزناً.

(ط) المسبح وماؤه:

وأنا أفكر في المسبح، و «قَرْوِهِ» الأعلى، والسِّتر حول المغتسل، وتحته «القرو» الأسفل المخصص للوضوء. لابد أن أذكر أين يذهب ماء الوضوء والاغتسال. فتأتي في الذهن النخلة، ذات الحظ الوافي في حياتنا، وفي تفكيرنا، فالماء يخرج من منفذ في المغتسل، ويجري

في ساقي، يمرّ بالنخلتين الوحيدتين في بيتنا، الأولى منهما «السِّلِّجة»، وهي أُولى المتلقيتين للماء، و «الشقرا» يصلها الماء في آخر المطاف، ويستقر هناك.

والسلّجة أحب إلينا نحن الصغار، لأن «لونتها» حلوة، والتلوين رحلة تعقب رحلة البسر الأخضر، ويعقب التلوين التتمير، يأتي تدريجاً. ونحن نحرص أن نصعد على جدار بجانبها، فنهزها فتجود علينا «بزقيطتين» أو ثلاث، تقع في حوضها، ولا يخلو الأمر من مخاطرة الوقوع من هذا الجدار. وكنا نغبط العصفور الذي يصعد إلى القنا، ويختار ما يشاء مما أتمر، وما نضج من الثمرة.

والعصفور خبير متمرس بهذا العمل، تهديه فطرة زرعها الله فيه، يأخذ العصفور نقدة أو نقدتين،

ثم يترك التمرة، فيطرقها الهواء، فيجف بعض ما فيها من سائل، فيتركز السكر في هذا الموقع، فيصبح للتمرة لذة لا تعدلها لذة السليمة التي لم «ينقدها» العصفور. و «النقادة» إذا وجدناها ساقطة في حوض النخلة، أو في طاسة «الخَراف» نتسابق إليها، وينالها صاحب الحظ الأوفى.

أما النخلة «الشقراء»، واسمها لا يدل عليها لأنها إذا لونت أصبحت حمراء، فلا نستطيع الوصول إليها بسهولة، لأن الماء يركد تحتها بغزارة، وأكاد أجزم أن هذا الماء الراكد تحتها قد أفسد تربتها، فضعفت النخلة تدريجاً حتى ماتت بعد سنتين تقريباً، وعمرها، قياساً على طولها، لا يقل عن خمسة عشر عاماً.

وقد حرص جدي ـ رحمه الله ـ أن يُحِل محلها أخرى،

استفادة من مكانها، ومن الماء المناسب إلى حوضها، دون تعب أو خسارة، فلم تنجح المحاولة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، ولعل أحداً لم يدرك حينئذ أن الماء الراكد تحتها وباء يقضي عليها وهي في مهدها. وأذكر محاولة جدي هو والعم حمد العثمان الخويطر، وهو من كان يُحضر «الغرسات»، وقد شمّرا ساعدهما لتهيئة الأرض، وإعدادها للغرسة الجديدة.

وإذا كان جدي قد ابتعد عن الفلاحة منذ زمن، ومنذ ابتدأ والدي العمل في التجارة، فالعم حمد العثمان لم تنقطع صلته بالنخيل، وكنت إذا زرت ابن أخيه قريبي عثمان العبدالله، أغبطهم، لأنهم يسكنون في بستان تحيط بهم النخيل فيه، من كل جانب على قلة عددها.

(ي) أخو شماء:

قد لا يكون بين هذه المواضيع في هذه الصفحات الأخيرة رابط، ولكن مرورها بالذهن لسبب أو آخر جعل من حقها أن تدوّن، فهي صورة من صور تلك الأيام. فكلمة: «الرَّجَّال ولد ثويراً» أو «جاب ثويراً» ذكرني أن كلمة «الرّجَّال» استعملت مرة أخرى في غير موضعها، فقريبتنا التي ذكرت بعض الطرائف التي أتت منها قالت في يوم من الأيام عندما سئلت عن صحتها في ذلك اليوم:

«الرجَّال اليوم ما هو أخو شماء»[1].

وقَصَدَتْ بهذا التعبير أن صحتها ليست على ما

---

(١) أخو شماء قول يقوله من (يعتزي) و (ينتخي) باخته شماء، دليل الشجاعة والإقدام، فإذا لم يكن في يوم من الأيام أخو شماء فهو مريض أو ضعيف أو جبان.

يرام في ذلك اليوم. وقد علّق ابنها على قولها هذا، بصوت منخفض، موجهاً الحديث لنا:

تعني بالرجّال نفسها.

وابنها سريع البديهة، حاضر التعليق.

وفي يوم من الأيام، وقد تعدى سنها التسعين عاماً ـ رحمها الله ـ وهي تصف إحدى الفتيات الجميلات:

«إنها جميلة جداً».

ومررت يدها، وهي تقول ذلك، على خدها، يعني أن صفاء، أديم وجه الموصوفة مثل صفاء أديم وجهها هي، رغم ما فيه من تغضن وتجاعيد. فعلق ابنها بصوت منخفض، موجهاً الحديث لنا:

«مسكين من سوف يتزوجها»..!!

(ك) البقرة وصُفَّتها:

أجزم أن هناك منافسة بين النخلة والبقرة أيهما يحظى بالنصيب الأوفى في هذه المذكرات، فرغم أن هذا القسم ليس لهما أساساً إلا أنهما لا يفتآن يحضران في الذهن بين آن وآخر بمجرد أن تأتي في الذهن كلمة تمت إلى إحداهما بصلة، وقبل قليل دخلت علينا النخلة عن طريق الحديث عن الماء الفائض من الاغتسال والوضوء.

أما البقرة فلا تحتاج إلى أن يُمهد للحديث عنها، فهي ذات منزلة عالية في البيت، ولابد أن تأخذ حقها وافياً. وابدأ الحديث عن صفتها وحوشها، وهما مملكتها التي لا يشاركها فيهما إلا من سمحت له بذلك!! والصفة غرفة تلج إليها من الحوش، تقيم فيها نهاراً في

الصيف، وليلاً في الشتاء، ويشاركها فيها الدجاج، ولها فيها «مسرى» تنام عليه ليلاً، وتحت معلفها تجد الدجاج خِنّاً تبيض فيه، وحوشها، فخلاف الصفّة، تفضله نهاراً في الشتاء طلباً لدفء الشمس، وليلاً هروباً من البرد.

وهناك قصة طريفة بطلها أخي حمد والبقرة وشيء من «الحنيني». كان أخي حمد صغيراً، ومثل كل صغير يعشق مضغ العلك (اللّبان)، وقد رأى البقرة كثيراً ما تجترّ، فظن أنها تمضغ علكاً، فطرأت في ذهنه عملية مبادلة، يأتي لها بقليل من الحنيني يعطيه لها، وتعطيه هي علكاً مقابل ذلك، وحرص في صبيحة أحد أيام الشتاء أن يوفر شيئاً من الحنيني، من إفطاره، فذهب إلى باب حوش البقرة، ومد يده من تحت الباب، فجاءت

البقرة، وأعطاها الحنيني، فلما انتهى دورها جاء دوره ليطالبها بالثمن، فأخذ يخاطبها ويردد:

«عاد عطين علك» (أي الآن إعطيني علكاً).

ولكنها عندما أدركت أن ما عنده قد نفد تركته وأبعدت عنه، وكانت خيبة أمل كبرى له، ليت بالإمكان معرفة ما دار برأسه حينذاك، فلا أنا اليوم أدري، ولا هو، أمد الله في عمره، اليوم يدري!.

(ل) أمور متناثرة أخرى:

تحت هذا العنوان سوف يأتي - إن شاء الله - أمور لم أتطرق لها من قبل، إما لأني لم أتذكرها عندما جاءت المناسبة لذكرها، أو لأني رأيت أن تكون تحت عنوان يدل عليها، ويدل على مدى صلة بعضها ببعض،

حتى لو كانت الصلة ضعيفة، وقد لا تحدد هذه الكلمات المدلول الذي قصدته، ولكن هذا المدلول سوف يتبين عندما يقرأ القارئ ما يجيء ضمنها، أو ما يندرج تحتها. وحرصي عليها جاء من أنها صور كانت واضحة في زمننا، ثم بدأت تبهت مع الزمن، أو تلاشت كلية. وهي صور تكمل تحديد مجتمعنا، وما كان يجري فيه، ونظرة الناس إلى الأمور حينذاك، وهي كذلك تُري كيف أن الحِكَم، أو الأقوال التي بقيت على ألسنة الناس، هي من البيئة التي عاشوا فيها مادةً وفكراً، وبعض هذه الأقوال واضح، وقد يُحدس بإتقان مأتى بدئه، والمنطق المقبول في استعماله، وقد يكون أمره غير واضح، ولكنه لا يخطئ موقعه من الكلام، ولا مدلوله المراد، ولا ملاحظة إصرار الناس على إحيائه.

ومن تلك الأقوال ما كان مقبولاً في زمنه، ولكنه لم يعد كذلك بعد انتشار العلم، وعرض ما يسمع على بوتقة العقل. ومن هذه الأقوال التي يمكن أن تُعد في مقدمة الأمور المتنوعة:

(١) إذا ضربت وُلَيداً فأوجع:

مدلول هذا القول واضح وهو أنك إذا ضربت صبياً تأديباً له فآلمه، حتى يكون للضرب فائدة. وإذا كان ضربك له غير مبرر، أي أنه لم يكن للتأديب، وإنما بسبب مجرد الحنق على فعل ارتكبه، وهو ليس ابنك، كأن يكون الصبي قفز على بستان، وهجم على ما فيه من فاكهة أو خضرة. حينذاك سوف تكون ملوماً من أهله، فلو كان ضربك له خفيفاً فاللوم لن يتجاوزك، ومادام الأمر كذلك فاجعل ثمن اللوم مجزياً.

هذه الصورة يمكن استعمالها في مناسبات أخرى، فالسارق يقولها لزميله، ويحثه على أن تكون السرقة مجزية للعقاب الذي قد يتلو اكتشافها. والكذّاب الذي يؤلف القصص ويكتشف الناس زيف قصصه بالإمكان أن يرمز بهذا القول لفعله، ويقال إنه بدلاً من أن يمسك بزمام لسانه تركه حراً لا يوقفه أحد.

(٢) إسمك يا عمير مشكي:

هذا القول مثل سابقه، أما عمير، فهو غير معروف لنا، ولكن يبدو أنَّه بسببه أنشئ هذا القول، ومن المتصور أن عميراً أقدم على فعل توقَّع معه أن يشكى على الحاكم بسببه، وتوقع أن يكون هناك جزاء، ومادام الأمر كذلك فمن الأفضل لكل من عمير ومن يشبهه

أن لا يكتفي بالخطأ الطفيف، وإنما يضاعف هذا الخطأ ليكون مجزياً للعقاب المتوقع أن يناله كل منهم.

(٣) إذا عزت بك فانتخ:

هذا مثل من البيئة وصحرائها، وما يجري فيها من حروب، وما يصاحب هذه الحروب من فروسية. ويمكن أن نتصور هنا شخصاً على فرس واقفة، أو تمشي، أو تخب، وفجأة تقفز الفرس، وتذهب سابحة في الميدان، ويصبح راكبها فارساً مقداماً رغما عنه، وليس أمامه إلا أن يساير هذا الوضع، ويُظهر أنه هو الذي أطلق للفرس العنان، ويُؤكد هذا العزم، ومظهر الشجاعة، أن ينتخي، أي يقول كما يقول الفرسان المقدمون باختيارهم: أنا أخو من طاع الله، وأنا أخو فلان

وفلانة، أو أنا ولد فلانة وفلان.

(٤) مادام زادك ماكول فرحِّب:

وهذا القول لا يخلو من روح الأقوال الثلاثة السابقة، وهو قول يجري على ألسنة الناس إذا أجبروا على أمر لا مناص لهم من الانصياع لتنفيذ المطلوب فيه، وهذا الانصياع خير لهم من أن يظهروا تذمّراً، أو يعطوا ما أعطوا بنفس غير راضية، أو يصاحب فعلهم ما يدل على أنهم مجبرون. عليهم أن يقبلوا الأمر مثلما يقبله رجل حلّ عليه ضيوف غير متوقعين، فعليه حينئذ أن يرحب بهم، وأن يظهر فرحاً بهذه المفاجأة ويعدها شرفاً، أي عليه أن يخرج عما تقتضيه الطبيعة إلى التكلف، الذي يرجى من ورائه الفائدة أكثر مما

يقصد منه إظهار الشعور الطبعي. وكثير من المواقف في الحياة تقتضي التحلّي بما يرمي إليه هذا القول.

(٥) تدري أو ما تدري:

مادمنا على مائدة الأكل فهناك قول يرد على الألسنة، ولعل ما أوحى به هو شظف العيش في ذلك الزمن، ولا عيب على الإنسان إذا لم يبق في الإناء شيئاً من الأكل، وهذا المثل يقول: «تدري أو ما تدري طعم الزاد حكاك القِدر». ونظرة الناس في تلك الأيام إلى لحس الوعاء معتادة، وتأتي من أن الزاد عادة موزون. على أي حال الحكاكة (الكدادة) في أسفل القدر هي بلاشك أطعم ما في القدر، لأن النار «تقمّر» ما يليها، فيأتي محروقاً بعض الشيء. و (تدري) الأولى هي الأساس،

أما الثانية فأتي بها وتداً للأولى، وسنداً لها.

(٦) لا تأكل السمك وتشرب اللبن :

هذه الجملة هي (مرجيحة) النحويين، في اختلاف الأوجه في إعرابها، وأتينا بها هنا لأنها داخلة في خانة الأكل مثل سابقتها، وقد ثبت أنه لا بأس من شرب اللبن مع أكل السمك، بل إن في أحدهما من عناصر الغذاء ما يكمل الآخر. ولو كان الأمر كما قيل لقلنا إن السبب وراء هذا التحذير هو الاقتصاد، أو عُني به البلدان البعيدة عن البحر، فالسمك الذي يأتيها من البلدة التي على البحر يكون عرضة للفساد، كما بين مكة وجدة، عندما لم يكن هناك وسائل نقل مبردة.

(٧) أكلت السمكة حتى رأسها :

هذه الجملة، وهي تخص الأكل أيضاً، ميدان لعب للنحويين، «فرأسها» يجوز رفعها ونصبها وجرها، فهل هذه الجملة مع سابقتها أُلفت من قِبَل نحويين يسكنون مدينة مجاورة للبحر، ولابد أن بعض غذائهم من السمك؟

المؤكّد أننا في عنيزة بعيدون عن البحر، وعرفنا هذه الجمل عن السمك قبل أن نعرف السك نفسه، ولم نره، ولا نعرف حجمه ولا طعمه ولا ريحه. ومعرفتي به عن طريق الجمل التي تتحدث عنه، وأذكر أنني رأيت صورة سمكة لأول مرة في كتاب مطالعة يُدرّس في مصر أو في سوريا، وقع في يدي. وأول صفحة منه كانت ممزقة، وكذلك آخر صفحة، ولهذا لا أعرف

اسم الكتاب، وهو الكتاب الذي قلت أن فيه صفحة فيها: «صورة قط يرقب فأراً من وراء جدار».

(٨) واللّه ما أدري عنك يا عيد :

هذا من الأقوال الشائعة في مجتمعنا، نسمعه كثيراً في المواقف التي تستوجب قوله. وهو من الأقوال التي وراءها حادثة معينة لا نعرفها، ولا نعرف تاريخها أو متى وقعت، ولكنها لصقت بصفحة الأقوال في المجتمع.

وصيغة القول كاملة هي:

«والله ما أدري عنك يا عيد أنت الضاوي أو القعيد».

لا ندري من هو عيد هذا. والصورة التي يمكن أن نخرج بها أن هناك أمراً سوف يرتكب، فيه مخالفة

للنظام أو العُرف، يقوم به اثنان أحدهما المُوكّل بالفعل، والآخر مُوكّل بالمراقبة، لينبه الفاعل إذا ما ظهر ما يوجب الحذر والتخفّي أو الانسحاب.

وهذه جملة سمعناها كثيراً تُقال لنا أو تقال لغيرنا من أمثالنا من الصغار الأشقياء، وتقال عندما تكتشف أفعالهم الشائنة، ويواجه الصبيان بما تم اكتشافه ويأخذ كل واحد منهم يحلف الأيمان أنه لم يرتكب هذه الخطيئة، والوالد أو الوالدة يعرفان أن هذا غير صحيح، ولكن ليس لديهما ما يجعلهما يجزمان بدور كل واحد من الفاعلَين، فيقولان هذه الجملة تأكيداً لسوء ظنهما بالصغار، وحيرتهما في دور كل واحد، فليس هناك ما يبين من هو المخطط ومن هو المنفذ، ومن هو المحبذ، ومن هو المبتهج بهذا الفعل.

(٩) إهبش هبيشك :

هذه نصف جملة، وهي كاملة: «إهبش هبيشك وخل السلاطين تقاتل». يقال إن هناك رجلاً سرق مع آخرين خزنة السلطان، وابنه، وقيل «صبيهُ» لا يعلم بالأمر، ورأى رجال السلطان يتحرون عمن يمكنه أن يفعل ذلك، فلفت الابن أو الصبي نظر والده أو سيده، وأراد أن يحلل الأمر، ويفكر فيمن فعل هذه الفعلة الشنيعة. وكان الاثنان يهبشان قمحاً أمامهما، فقال الأب لابنه أو خادمه: إهبش هبيشك وخل السلاطين تقاتل.

هذا مثل يقال لمن لم يُرَد له أن يُدخل أنفه في أمر لا يخصه، مما قد يلحق به ضرراً. فقد يأتي الصبي ومعه خبر يُتناقل يعرفه أهله، ولا يريدون أن يخوضوا فيه.

فيقولون له هذا القول، وفيه الكفاية، وقطعت جهيزه قول كل خطيب.

(١٠) اللَّه يكفينا شر أنا:

ينفر الناس من كلمة أنا، فإذا وردت في أحاديثهم أردفوها بقولهم: الله يكفينا شر قَولة أنا. وأنا ضمير الحاضر، ولا عيب فيها إلا إذا أتى بها شخص لمدح نفسه، أما إذا جيء بها للإخبار فلا أرى مجالاً للشرّ فيها، ولعلّ في الإصْرار عليها تذكيراً بعدم النيّة في مدح الإنسان نفسه.

(١١) إحصد هواء:

من الصور المعبرة قولهم لما لا يأتي من الجهد فيه

أي فائدة، وإنما العمل فيه جهد ضاع:

إحصد هوا غمِّر ماش.

الهواء ليس شيئاً يمسك، ولهذا لا يتوقع أن يحمل منه المرء على دابته حملاً وافياً. وهو يقال لمن يُرى يعمل، وقد يكون القائم به باذلاً الجهد، ولكن لا يُرجى من عمله مردود، مثل طالب يذهب إلى الكتّاب بمواظبة، ولكنه في التحصيل واقف في مكانه لا يتقدم. وشخص يبيع ويشتري ولكن تجارته لا تأتي له بربح، فهو كمن يحصد هواء ويحمّل منه على دابته لا شيء.

هذا تعبير صادق، وكثير استعماله. وفي حالات نادرة يقال لدرء عين الحسد، فشخص ناجح، ويأتي بخير من عمله، وعندما يبدي أحد لوالدته ملاحظة عن نشاطه

تقول: لا يغركم ركضه: إحصد هو اغمّر ماش. وغمّر بمعنى حمِّل، والغِمر هو الحمل، وجمعها غمور.

تراك بحرج:

هذه من الكلمات التي تأتي على ألسنتنا، أو نُسمع إياها: «تراك بحرج يحتِّك حتّ الورق».

تقوله امرأة لأخرى أو لآخر، أو لابنها، إذا أرادت منه ألاَّ يفعل شيئاً، وأرادت منه عهداً يقطعه على نفسه، وفَعَل، أو أَبى، فتقول له هذه الجملة. وكان لها تأثير، فأحدنا إذا طلب منه شيء عليه بعض مسارب الانتقاد يقول: إن أمي محرجتني، وكأنه يقول قد أخذت عليَّ العهد ألا أفعل، فإن خالفت فسوف تحتني مخالفة العهد حت الورق، أي تتساقط أجزاء جسمي

كما تتساقط أوراق الشجرة على الأرض، وسقوط ورق الأشجار منظر مألوف للصغار، خاصة وقت الخريف، وقد اختير من البيئة الزراعية التي يتكرر سقوط الورق فيها سنوياً مما يجعله يثبت في الذهن ويأتي بالتأثير المراد.

وللحرج تأثير قوي عند الذين يولون العهد من الصبيان أهمية، ومخالفة الحرج تُبقي في النفس شيئاً من الرعب، أو عدم الارتياح على الأقل. ولهذا فهو عامل مؤثر، فالأم تقول لشاب أكبر من ابنها تراك بحرج إذا آذيت ابني. أحياناً هذا أكثر تأثيراً من تهديده بإخبار أمه. كيف تبلور هذا القول إلى هذا المدلول، ودخل في الأحاديث لهذه الأغراض، الله أعلم، ولعل تتبع معاني كلمة «حرج» في القواميس يلقي بعض الظلال.

(١٢) من جرف لدحديرة :

الجرف معروف هو ما يطل منه الإنسان على هاوية، والدحديرة هي الطريق المنحدرة كثيراً، بحيث إن السائر عليها لا يستطيع منع نفسه من السرعة في السير نزولاً. والتعبير يقال عندما يخرج المرء من خطأ إلى خطأ.

فالشيء غير المريح في الأول لم يبعد عنه الالتجاء إلى دحديرة فيها الكثير من طبيعة الجرف. وقد يكون في الفعل الثاني ما هو أسوأ من الأول، وبدلاً من أن يقال زاد الطين بلّه يقال: سار من جرف إلى دحديرة. وهذا التعبير صورة من صور البيئة، ورغم أننا سمعناه في عنيزة إلا أن الدحديرة استعمال مكّي، ولعله اقتباس ممن عاش بين عنيزة ومكة، فمن عنيزة أخذ الجرف، ومن مكة أخذت الدحديرة.

والجرف يصغر أحياناً ويستعمل مصغّراً استعمالاً كثيراً، ولمعنى قد لا يكون قريباً من الاستعمال الأول. فيقال: «فلان على جريف».

أي جاهز لرد الفعل، فيقال: لا تذكر الأمر لفلان لأنه على جريف، أي يكاد ينفجر، أي جاهز لذلك، ويقال: لا تعرض على فلان كذا فإنه على جريف، أي جاهز للقبول. فلا تعرض عليه زواج ابنتك فهو جاهز للقبول. ولا تشتم فلاناً أمامه فهو على جريف أن يكيل له الشتائم. وهذه هي استعمالات جرف مكبراً ومصغراً.

(١٤) تراها محضورة :

كلمة تقال، وغالباً بهمس، تنبيهاً لمتكلم كاد أن يقول شيئاً فيه إحراج له، أو لصاحب المجلس. فلو

أراد شخص أن ينتقد شعباً من الشعوب في جلسة من الجلسات، لأن الحديث أدى إلى مناسبة ذلك، وكان أحد أفراد ذلك الشعب حاضراً في الجلسة، همس أقرب الناس إلى المتكلم قائلاً له: تراها محضورة، أي أن أحد أفراد الشعب الذي سوف تنتقده حاضر معنا في هذا المجلس، ويكون في هذا إنقاذ كبير للمتكلم، ولمن عناه الأمر، ولصاحب المجلس.

ولكن في بعض الأحيان يسبق السيف العذل، وتخرج الكلمة، وتصيب مقتلاً، يحتاج رتق فتقه إلى مجهود.

وتكاد الأمثلة على هذا لا تحصى. وأذكر حادثة لشخص وقع في هذا الموقف الحرج، ولكنه لم يتراجع، وأصر على قوله، ووجهه وجهة أخرى، وهذه هي القصة:

قبل أكثر من أربعين عاماً كنا مجموعة نسير في أحد شوارع إحدى عواصم البلدان، وأخذ أحدنا ينتقد مديراً في إحدى الدوائر الحكومية بقسوة، وغمز له أحدنا بأنها محضورة، وأن ابن أخت المدير بيننا الآن، فبسرعة التفت إليه هذا وقال له: إني لم أقل ما قلت إلا لتوصله إليه علّه يحسن من إدارته، فابتسم السامع وقال: رقّعتها فأحسنت الترقيع، فغلبنا الضحك جميعاً.

(١٥) إسمع يا جَر:

عندما يتكلم شخص ملغزاً، يقول لمن قصده بالإلغاز: «إسمع يا جر»، يعني اسمع أنت أيها الغافل: هذا القول يعنيك. ويقال هذا عندما يكون الإلغاز غامضاً، أو أن من يخصه اللغز «سارحاً» أو غافلاً.

وأذكر ونحن طلاب في القاهرة أننا دخلنا فيلماً ليوسف وهبي وليلى مراد، وفيه بشارة واكيم، وكان بجانبي أحد أبناء عنيزة، فغنّت ليلى مراد:

إمتى حتعرف إمتى... إني بحبك إنْتَ.

«فندس» بشارة واكيم يوسف وهبي بكتفه، وقال هذا الكلام إِلَك. باللهجة اللبنانية، فقال العنيزي بصوت خافت: قل: اسمع يا جر.

(١٦) ما عنده سالفة:

لا تعني أنه ليس عنده قصة، والقصة هي السالفة، ولكنها تعني أنه لا يفهم شيئاً، أو أنه كاذب ويؤلف، وأحياناً يقولون: ما عنده سَنَع، أي لا يفقه ما يقول. فلو وقف شخص يسأل آخر عن بيت فلان، فوصف

له وصفاً بعيداً عما يتوقعه السائل، لالتفت السائل إلى من بجانبه وقال: ما عنده سالفة، أو ما عنده سنع، أي تدبير.

ولو قص شخص تاريخ شخص، وقلب الحقائق، أو خلطها، أو أدخل تاريخ شخص على تاريخ آخر، فلا يعدم أن يسمع من بين الحاضرين من يقول له: ما عندك سالفة. أو ما عندك سنع، ويردف هذا بالتصحيح الذي يراه. وقد يقول لمن بجانبه: «خلك عنه». وقد يأتي التعليق حاداً همساً، فيقول أحد القاعدين لمن بجانبه: «حط بالخرج».

حط بالخرج جملة ترمي إلى إهمال ما قيل ومعناها: ضع ما سمعته في خرج الناقة، وهي (الزوادة) التي توضع على ظهر البعير عند السفر، ويوضع فيها ما يحتاج إليه

من زاد وغيره، ولكن المصطلح أخذ زاوية حادة، تكاد تقول: احفر لما قال وادفنه في التراب. فحط بالخرج حث على عدم الأخذ بما قيل، وعلى إهماله إهمالاً كاملاً.

وأحياناً يقال: «ما عنده ما عند جدتي».

(١٧) يُحرج البركة:

جملة يحرج البركة هذه أرجو ألا تكون بدأت الآن تزحف إلى الخلف تمهيداً للاختفاء، وهي جملة كانت في زمننا حيّة تجري على الألسن.

تأتي هذه الجملة إثباتاً للمدح، وتأتي نفياً للذم، وهي مرادفة تقريباً للتعبير المكي والمصري: فلان فيه خير، أي أن الشخص المقصود يبذل ماله، أو جاهه،

ولا يخيِّب رجاء أحد، وخلافه من لا يحرج البركة، أو لا يأتي منه خير. وفي حالة الإثبات يشع نور يسعد به المجتمع، وفي حالة النفي يخيم ظلام دامس على المجتمع. فإذا خلا المجتمع من أهل الخير نزعت البركة منه.

ولعل أصل كلمة: «يحرج» «يحرز»، فحرّفت إلى يحرج، وحينئذ معناها في الأصل: فلان يحرز البركة، أي تأتي البركة على يديه، لأنه يحوزها. ولا يستغرب هذا التحريف لأن الحكمة أو المثل إذا درج من جيل إلى جيل، أصبح يعرف مسربه للاستشهاد، دون التمعن في معنى الكلمات، أو معنى بعضها، والناس، خاصة العامة، بالسليقة يبحثون عن اللفظ السهل، المواتي لسليقتهم أكثر من المعنى، ومدى دقّته، «فالدِّعس»

لسليقتهم أكثر من المعنى، ومدى دقّته، «فالدِّعس» في البر يصبح «طعساً» و «الحزن» «حزماً»، ومثل هذا كثير. المهم أن هذا القول قد تردد على الألسنة، ولا أظن أن أحداً منا نحن الصغار فكر أن هناك ما يوجب الالتفات والتدقيق.

(١٨) جَمَل مزنة :

«جمل مزنة يحن حنين ما عاد يبي فرقا القطين».
جملة كنا نرددها ونحن صغار، ولعل اللحن هو الذي كان يجذبنا، وإلى أن كبرنا ونحن نتصور أن «القطين» هو القطيع من الإبل، وأن الجَمَل لا يريد أن يُفصل من قطيعه، وما عرفنا أن القطين هو البدو القاطنون المقيمون في مكان ما من الصحراء.

وكنا نقوم بتنغيم هذه الجملة، ونحن في فرشنا في السطح، ننظر إلى النجوم المتلألئة، ونعيد هذه الجملة ونرددها، ولا يهمنا إلا النغم الذي ينتهي في آخر الأمر بالنوم. وقد يتصل بحلم نرى فيه جمل مزنة وهي على ظهره تنوي سفراً، وعينه «تلخس» القطيع، وهو يتلاشى مع أول خطوة في سبيل الفراق. من هي مزنة؟ الله وحده يعلم.

(١٩) فقر وغلدمة:

الغلدمة هي الحزن وتكشير الوجه، وقد استكثر قائل هذا القول أن يجتمع الفقر وتقطيب الوجه معاً، وإن كان تلازمهما قد يبدو في كثير من الأحيان طبعياً، وخلافه هو غير المعتاد.

كلّما جاء أمر مزعج يتلوه آخر مثله. فالطالب الذي يرسب ويحزن يقال له هذا القول، ويطلب منه أن «يفرفش»، حتى لا يجتمع عليه عسران. ومن الناس من لا تفارقه الابتسامة رغم فقره، وهو يتمثل بقول الشاعر العامي:

أضحك مع اللي ضحك والهمّ طاويني

طوية شنون الطَّرَق وإن قطّروا ماها

الهمّ في داخله قد طواه من الألم مثل ما تُطوى القربة الشن، فتجف، وتصبح كأنها «عصبة» ولا تفرد إلا بعد أن تبل، وهي صورة مرعبة لما في داخل الفقير من غم، يغطيه ابتساماته، ويحجبه إظهار خلاف ما يبطن.

والموقف الذي ينطبق على هذا المثل، ويمشي معه على جادة الحزن و (الغلدمة) هو القول الذي كنا نسمعه يُردَّد ونحن صغار:

«حر وبق وقبلان معرس».

هذه شكوى زوجة رجل يسمى قبلان، تزوج عليها زوجاً أخرى، وفي هذه الليلة استبد بها الحزن، وجلس قدر «الغلدمة» على ثلاث أثافي وجعل قِدْر سعادتها يغلي، أول هذه الأثافي الحرّ الذي لم يساعدها على النوم، وتكالب معه الناموس الذي يهاجم دون هواده، ولا يفتر عن الكر والفرّ، وثالث المصائب زواج الزوج في تلك الليلة. من أي جانب تدخل الابتسامة؟ ومن أي طريق تأتي؟ وقد تعهد هؤلاء الأعداء بأن يقوموا بواجب (التنكيد) عليها؟!

(٢٠) حِقّ، قرقوش، منظره :

الحق وعاء صغير تحفظ فيه لوازم زينة المرأة، والقرقوش «دُلاَّهة» (مسلّية) تحرك وصوتها يهدئ الرضيع حتى يسكت عن البكاء، أو تحرك لينام على «خشخشتها». والمنظرة «المرآة» مكملة زينة المرأة.

أذكر أنه انتشرت بين الناس أداة جمعت هذه الأمور الثلاثة. علبة صغيرة لها غطاء، وعلى جانب منها مرآة صغيرة لها يد تمسك بها، وفي داخل العلبة (الحُقّ) نواة تمر أو أكثر، أو حجر صغير.

و «حقٍّ ، قرقوش، منظَرة» مَثَل يُضرب لمن هو مفيد من عدة نواح، فالسائق الماهر في قيادة السيارة، العارف بعدّتها و (مكنتها)، والقادر على إصلاح الخلل إذا حصل فيها، ومن يفهم، مع ذلك، في أمور الكهرباء

والسباكة، وتعليم السباحة، فالمثل ينطبق عليه. فلو سأل واحد عنه شخصاً آخر، واستفسر منه عما إذا كان يجيد المهنة الفلانية، أجاب المسؤول: إنه يجيد ذلك، إنه «حِق، قرقوش، منظرة». وما أسعد من يكون فيه مثل هذا الوصف.

(٢١) إما حبا وإلاّ برك :

«إما حبا وإلاّ برك والاّ مشى النوطزة»، يضرب للشخص الذي يأتي بالمتناقضات، فهو إما نشط أكثر مما يتوقع أو كسول فوق المعتاد. والمثل يصور رجلا أحياناً يحبو على ركبتيه، وأحياناً يبرك عليهما، ولا يحير حراكا، وأحياناً يقفز مثل قفزات الغراب، أو الأرنب.

وهذا المثل جرى على الألسنة، كنا نسمعه كثيراً، وأصبح من السهل علينا استعماله فيما يناسبه من مقام،

فالطالب الفلاني كسول ثم فجأة يدب فيه نشاط غير معتاد، وآخر يقبل على شخص إقبالاً متناهياً، ثم يُدبر عنه بالدرجة نفسها.

(٢٢) ما ينظم خيط بإبرة :

ما ينظم (خيطاً) بإبرة إلا بعد أن يأخذ رأي والده مثلاً، وهو مثل يُضرب لمن لا يقرر أمراً إلا إذا أخذ موافقة من هو أقرب إلى اتخاذ القرار. ويأتي ممثلاً حالة مدح، فإذا قيل هذا المثل لمن لا يأخذ دواء إلا إذا استشار طبيباً، أو يبني بيتاً، أو لا يعدل فيه إلا بعد استشارة مهندس. أو لا يقدم على عمل ما إلا بعد أن يأخذ رأي خبير، فهذه صيغ مدح، لأنها تصف من ضرب عنه المثل بالعقل، لأن المستشير لا ينطلق إلا من منطلق العقل.

ولكنها أحياناً تأتي في سياق الذم واللمز كأن يقال عن شخص أنه لا ينظم خيطاً بإبرة إلا إذا وافقت زوجته. ومعنى هذا أن أمره بيد زوجته، فهو لا يبرم أمراً صغر أو كبر إلا بعد أن يستشيرها، وتشير عليه بما يسير عليه. وفي هذا القول في هذه الحالة تحقير للرجل بمعنى أنه إمّعة يسير خلف زوجته، ويأتمر بأمرها، ولا يخرج عن الجادة التي تخطها له.

وفي هذا السياق نذكّر بفعلة سيد الخلق ﷺ عندما حزبه الأمر، وقد جاء لدخول مكة، قبل الفتح بسنة، ورأته زوجه أم سلمة، فأشارت عليه برأي أخذ به ـ صلوات الله عليه ـ فأزال ذلك الرأي الغُمَّة، وتسابق الصحابة يفعلون فعله، فقد ذبح هَدْيَهُ كما أشارت زوجه، فذبح الصحابة هديهم.

والمرأة قسيمة الرجل في بيته، وفي عاطفته، ولا يمر يوم دون أن يكون هناك حاجة لتداول الرأي بين الرجل والمرأة. وأشهد أني لا أكاد أحصي المرات التي عَمي عليَّ فيها الرأي، وجاءني النور من زوجي، أو إحدى بناتي، خاصة بعد أن كبرتُ، وأصبح رأيهم في جيلهم خير من رأيي وأنا من جيل متقدم.

ولعل هذا من تنظيم الله لهذا الكون، وصلاحه، يأتي الصغير بعد أن كلّ الكبير، فيحسن العمل، ويكمل ما قد يكون هناك من نقص، ويدفع عجلة التطوير. وابني محمد يكفيني الآن كثيراً من أمورنا العائلية، التي هو أقدر على معالجتها، والبحث عن أسلم الطرق للوصول إلى الهدف فيها، خاصة في أمور المال التي لم يعطني الله حظّاً في التعامل معها، وأمور الكمبيوتر

والانترنت. وهذان الأمران أدهشُ من سرعة تصرف أحفادي فيهما، وإتقانهم لهما، وهو أمر عرف عن الجيل الطالع حتى قبل البلوغ.

(٢٣) هِذا المشعاب وهذانّي:

في النهار عقل الطفل يعمل، وعيونه حينذاك ترى، وأذنه تسمع، فهو في شغل عن بعض الأمور التي لا يجد غيرها في الليل، فهو في الليل مستلق على ظهره في فراشه يغازل النوم، ولا يرى إلا النجوم الساطعة في السماء فوقه، ويبقى لسانه الأداة التي لا تحتاج إلى ضوء النهار ولا إلى سراج الليل، ولهذا يعمد إلى الغناء، أو إلى الجُمل المسجوعة، ولا يهم المعنى، وإنما المهم هو اللحن، وحبذا لو تجاوب معه أحد الأطفال من أهله، أو من أطفال الجيران.

سوف أسوق بعضاً من هذه الأبيات أو الأسجاع، لأعطي فكرة عما كانت عليه صورة الأطفال عند النوم في سطوح البيوت في الصيف، والرسم البياني الذي تأخذه عقولهم، وتملأ فراغاته أذهانهم، ومن ذلك القول الآتي:

«هذا المشعاب وهذانّي، من عادى دغيّم عادنّي».

المعنى لا يأتي إلى الذهن لا من قريب ولا من بعيد، فليس هناك مجال للتمثيل أو الاتعاظ أو الحكمة، وإنما هو لحن فحسب، وقد تطلّ صورة لمغني هذا المقطع بأن هناك من معه «مشعاب» وهو عصا غليظة، ها رأس معقوف، وقد أعدت لمن يعادي «دغيّم»، ولا ندري من هو دغيّم، ولماذا استوجب العداء من أحد، ولكن سجعته «انّي.. ونّي» تطربنا، وتساعدنا على

تنويع النغم، حتى يهبط النوم على الرؤوس فتستريح، ويستريح معها «دغيّم» ـ رحمه الله ـ فربما كان في يوم من الأيام موجود، وكان في موقف قيل عنه فيه هذا البيت المبهج لنا!!

(٢٤) يا محمّد يا مقمّد:

«يا محمد يا مقمّد، يا عروق البيدجانه، حطت أمّك في عشاك خنفسانه».

لحن جميل كنا نردده، فنطرب له، ومعناه غير واضح، ولكننا كنا نعطيه صورة نرتضيها، أخذناها من وحي بعض الكلمات مثل: «مقمّد» التي لا معنى لها، ولكنها تسند كلمة «محمد». ولسبب لا نعرفه توحي لنا هذه الكلمة أن المتكلم زنجية، يعضد هذا «البيدجانه» التي هي سوداء ولعل عروقها تكون أكثر

سواداً، ويبدو أن الخنفسانة اختيرت أيضاً لسوادها، ولتتناسب مع سجعة البيدجانة.

فإذا صح أن قائلة هذا القول سوداء فمحمد أسود، فشدة السواد عند السود جمال، كما أن شدة البياض عند البيض جمال، ولا أستبعد أن تكون نهاية الجملة، وهي، إلى حد ما، تتنافى مع أولها، هي من إضافاتنا، وقد تكون جاءت بسوء نية، لأننا كنا نتلذذ بالكلمات البذيئة، مثلما هي عادة الصغار دائماً، وهل هناك أمر مقزز ومؤذ أكثر من خنفساء في الأكل؟ إلا في بعض دول الشرق الأقصى!.

وهذه الخنفساء لم تسقط في إناء العشاء، وإنما وضعت فيه، ومن وضعها؟ أمه.

(٢٥) لا يا حلالات يالمَلْفَى :

بدء أبيات كنا نرددها ونحن صغار، ولم نكن ندرك معناها إلا ما هو على السطح، ومرة أخرى يبدو أن اللحن، والليل ومنظر النجوم والسماء والهلال والبدر هي التي توحي بترديدها حتى يعتقها الله بنومنا، والأبيات كنا نحفظها هكذا:

لا يا حلالات يالملفى

لو هي عجوز ومجنونه

الساق منها كما الشلفا

وتوحش الناس بعيونه

وادخل عليها بصفّة ظلما

يا كود ما راعي عيونه

الصورة المزعجة هي ما اجتذبنا لهذه الأبيات،

رجل يريد أن يتزوج، حتى لو كانت الزوجة عجوزاً أو مجنونة، ساقها مثل حد السيف، أو حد حصاة، وعيونها تخيف من رآها، ويزف إليها في حجرة ظلماء، لكي لا يرى عيونها، (السطر الأخير يبدو أن فيه خللاً، ولكن هكذا حفظناه).

كنا نحب أن نردد هذه الأبيات للصورة البشعة التي تحتويها، وهي صورة شر، والشر يعجبنا!.

(٢٦) يا إلهي، العجب !! :

هذه الأبيات، أو الأسجاع تعجبنا، ويعجبنا أن نرددها، لأن فيها بعض النبوّ، ونحن نحب النبوّ، وما يخرج عن الجادة، ويبدو أننا نشعر حينذاك أن في هذا النبوّ تنشيطاً لأفكارنا، وإزالة للركود الذي تسببت

فيه الأمور الموجبة، ونحن أقرب إلى الترحيب بالأمور السالبة، والقول كاملاً هكذا :

يا إلهي ، العجب ! كيف هذا يصير

الملاك الضحى والطلاق الاخير

المعتاد أن يستمر الزواج الموفق، وأن يكون من نتيجته بنون وبنات، إلا أن هذا الزواج لم يدم إلا ساعات، هي ما بين وقت الضحى، ووقت العشاء. هذا السلب بهذا النغم أعجبنا فرددناه، والغريب أن يأتي (الملاك) في وقت الضحى، والطلاق بعد العشاء!.

(٢٧) ألا يا اللّه يا غافر ذنوبي :

بعد أن كبرنا قليلاً، وصار ابن عمتي صالح الحمد القرعاوي يختلط بشباب أكبر منا ومنه، صار

يأتينا بأبيات ذات مستوى أرفع مما كان يجتذبنا ونحن صغار، وأذكر من هذه الأبيات أبياتاً جميلة مثل:

ألا يا الله يا غافر ذنوبي

وأنا إن زليت لا تزر عليّه

أحب الصدق ماني بالكذوب

ولا لي بالعلوم القلبيّة

ما أحلى هذه الأبيات، وما أحلى نغمها، وما أحلى ترديدها، وكنّا ننام نوماً هانئاً بعدها للنغم الشجي، ولأننا متعبون، والنجوم جمهور منصت.

(٢٨) يا غريب يا بو دايح :

من الأبيات التي يعجبنا أن نرددها بلحنها المعروف بها، الأبيات الآتية :

يا غُرَيِّب يا بو دايـح　　يا مــروي اللقــائح

يا غريب وش اللي بك　　تجـيبني وأجيبــك

قطّعت قلبـي بتزعيبـك

الغُريب تصغير الغرب، وهو الدلو الكبير الذي يستخرج به الماء من البئر عادة، ولهذا قال يا مروي اللقائح، كناية عن الإبل، وهذا البيت يعطي معنى مقبولاً، ولكن البيت الثاني يبعدنا عن جو البيت الأول، لأننا لا ندري ما جرى للغريب حتى يأتي هذا التساؤل، ويزيد الأمر بُعداً وغرابة قول: تجيبني وأجيبك، ولكن الشطر الخامس التالي سرعان ما يعيدنا للغُريب والماء لأنه يقول إن كثرة متح الماء قطعت قلبه.

ولهذا فهذه الأبيات مثل بعض الأبيات التي مرت كان الهدف منها هو النغم، والمعنى قد يأتي عرضاً،

خاصة وأن هذه الأبيات، وقد وضعت عهدة لدى الصغار، تكون عرضة للتحريف إما قصداً أو خطأ عند سماعها، ونقلها اجتهاداً. ويدل على هذا أن الشطر: «يا مروي اللقائح» في بعض الروايات الصبيانية ورد: «يا مسك الروايح»، وهو بعيد عن معنى الشطر الأول، سواء كانت الروائح مأخوذة من الرائحة، أو مأخوذة من روائح السحاب، وهو مرورها، وفي الأخذ بهذا تكلف، وأقرب منه: «يا مروي اللقائح»، مع أن اللقائح قد تكون السحب حاملة الماء.

ونترك الأشعار والسجع، والأقوال المنغمة إلى بعض الأقوال التي أصبحت مثلاً، وكنا نسمعها دائماً، ونستفيد منها فيما يقابلنا من مواقف، وكانت متداولة على الألسنة في تلك الأيام، أما في هذه الأيام، فإننا لم نعد

نسمعها إلا قليلاً، وربما فقط من المسنين من الناس:

(٢٩) نومة عنقا:

لابد أن لهذا المثل أصلاً انطلق منه، ثم نسي هذا الأصل مع مرور الزمن، وقد نحدس مصدره، ولكننا نعرف جيداً متى نستعمله عندما نحتاج إلى التعبير بإيجاز عن أمر الاستشهاد به مما يغني عن الإطالة في التعبير بغيره، والمثل كاملاً:

نومة عنقا على جراه.

وهي دعوة على الشخص الذي تأخر عن عمل بسبب النوم، ولما سئل عن سبب تأخره، قال: إن النوم أخذه.

والعنقاء كما يُظَنّ كانت موجودة، ولكنها انقرضت،

وكنا نتصور أنها نامت على صغارها فقتلتهم، ولهذا انقرض نسلها، وهذا الذي أطال النوم دعي عليه أن تكون نومته نومة العنقاء.

وكنا أحراراً في تصور العنقاء وحجمها وأولادها، كل منا بمقدار ما يسعفه خياله، وخيالي عن العنقاء وأنا صغير يختلف عما أتصوره بعد أن مر علي ذكر العنقاء في نصوص أخرى، خاصة عند مقارنتها بالخل الوفي.

(٣٠) ثَوّر اللَّه عليه ضرسه:

هذه دعوة مخيفة، لما فيها من عمق، ولما أوجبها من حُرقة ومرارة جعلت الداعي يختار هذه الدعوة، والجملة كاملة هكذا:

«الله يثوّر عليه ضرسه ليلة عرسه».

لا أحد منا نحن الصغار جرّب وجع الضرس في ليلة العرس، وقد أخذنا هذه الدعوة، وسلّمنا بها، لأنها جاءت من الكبار وهم أعرف منا بوقع وجع الضرس ليلة العُرس، ولأن هذه الجملة تتكرر على سمعنا كثيراً، وكذلك لأن فيها أذى ونحن نميل في تلك السن إلى الأذى، فإذا لم نجد من نؤذيه فقد نعمد إلى ظلنا فندوسه بأقدامنا!!.

وهي دعوة بلاشك متقنة، لأنها استطاعت أن تجمع بين متناقضين أحدهما البهجة ومنتهاها، والسرور وغايته، وفي الوقت نفسه أتت بما يهدم هذا الصرح المنير بظلمة تنزل فجأة، فتبدد تلك الأنوار، ويحل الألم المتناهي غير المرحب به، «ويفرس» طريقه غير آبه بأحد، وفي هذا حسرة أي حسرة، وغبن أي

غبن، ولكن الله يمن على بعض عبيده فلا يجيب دعوة هذا الداعي على أخيه المسلم، أما نحن فكنا نرددها ويطربنا فيها السجع، وتوقع الإساءة.

(٣١) ربع تعاونوا ما ذلّوا :

هذه حكمة بالغة السداد، تصور التعاون والتكاتف بأبهى الصور، وأن وضع الأيدي بعضها مع بعض يأتي بالنتيجة التي كان يتوقع ألا تأتي في العادة بسهولة:

«ربـع تعاونـوا ما ذلّـوا..

وإن جاهم السيل ما ابتلوا».

صورة للتعاون إذا نزل المطر، وأغرق الشوارع والأسواق، ودخل البيوت من أبوابها وخرّ من أسقفها، وتعاون أهل البلدة على التعاضد في تفادي الأضرار، بأن قام كل واحد منهم بما يستطيعه، لتغيير مجرى السيل، أو

تلقى نقط الأسقف بالأوعية الكافية، ونقل الأثاث من جانب من البيت إلى جانب آخر، أو من بيت إلى بيت. أو القيام بمجهود قبل مجيء المطر، أو قبل موسمه، لتقوية ما يحتاج إلى تقوية، أو إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح.

ليس هناك شيء من هذه الصور في ذهننا، وما جذبنا إلى أن نتابع القول في هذا الأمر هو السجع أولاً، ثم الاستفادة من مدلول هذا القول عندما نحتاج إلى مجهود جماعي، وهي الجملة التي نرددها ونحن نقوم بهذا العمل الصعب.

(٣٢) لو فيه خير ما رماه الطير :

لا يدور في ذهننا محيط هذا القول وما يعنيه، ولكن يغلب في هذا الأمر إدراكنا للاستفادة منه عند اللزوم، وإلا فالمثل غير دقيق عند التدقيق والتحقيق، فماذا عن

الصقر الذي اجتذبته صرة حمراء، فيها جواهر، ظنها لحمة، التقطها من حوزة شخص (جوهري)، ورماها، بعد أن اكتشف أنه لا خير فيها، في حقل رجل فقير، جاءته من الله، ولكنها ما لبثت أن عادت لصاحبها الجوهري، بفضل الله ثم بفضل حاكم الأندلس المنصور بن أبي عامر في قصة ممتعة[1].

كنا نقولها أحياناً تعزية لنا إذا ما أردنا شيئاً، ولم ندركه، ولكن هذا المعنى أقل مستوى ممّا قيل القول من أجله، وهو ترك شيء تُؤُكّد من عدم نفعه، بدليل تجنب الناس له، خاصة في البضائع والمعروضات، وهي جملة يفرح بها من ليس خبيراً، ولكنه راقب الخبراء، فرأى تجنبهم لبضاعة ما، فاستنتج من ذلك

(١) وردت القصة مفصّلة في كتاب: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب» (١/ ٤١٢) طبعة دار صادر، تحقيق الدكتور إحسان عباس ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

أن في البضاعة شيئاً قد لا يكون تبين له، ولكنه تبين لمن هو أكثر خبرة، وأكثر صواباً في الحكم.

(٣٣) ياهل البطيخ بطيخكم :

التبطيخ هو زراعة الخضروات والحبحب والبطيخ (الجراوة)، وهذه زراعة صيفية، والمثل بكامله:

«ياهل البطيخ بطيخكم، ترى أم عامر جلعدت بكم».

فالبطيخ المقصود هنا في الغالب الحبحب (الجح) والبطيخ (الجراوة)، وأم عامر هي (الضبعة)، ولأن مزارع البطيخ تكون عادة على ضفاف المدن، فمن السهل على (الضبعة) أن تتسلل فتعبث بالمزروعات. ولهذا فالمثل ينادي أهل المزارع بأن يتنبهوا لأن أم عامر قد لعبت ببطيخهم.

من المؤكد أن هذه الصورة لم تكن في أذهاننا في الصغر بهذا الوضوح، ولكن الذي يهمنا هو الاستفادة منها فيما نحتاج إليه في مثل هذا السياق.

وهذا المثل يُضرب لمن جاء على غفلة من الآخرين، فعاث في شيء ما كان بالإمكان أن يقترب منه لو كان أهله حاضرين، أو عندهم علم بما هو مقدم عليه. فأصحاب الشأن يقفون حراساً عليه.

الصغار أحياناً ينتهزون غفلة أهلهم، فينقضّون على شيء يؤكل مثل الدبس، أو طاسة «الخَراف» وفيها الرطب المجني حديثاً، فيلتقطون أحسن ما فيه، فيقول أحدهم تخويفاً للآخرين، بصوت عال: يا أهل البطيخ بطيخكم، ترى أم عامر جلعدت بكم. أي سلبتكم إياه، فعليكم تدارك ما بقي، والإنقضاض من شخص

على «كعابة» شخص غافل يُنبّه بهذه الجملة، ويعرف هو ما تعني هذه الجملة.

(٣٤) إذا حجت البقر:

«إذا حجت البقر على قرونها».

هذا قول يُؤتى به للدلالة على استحالة حدوث الأمر، لأن البقر أولاً لا تحج، وبالذات على قرونها، ولو كانت مما يحج لحجت على أقدامها.

يقول أحدهم إن فلاناً سوف يعمل كذا، أو قد وعد بكذا، ومن المعروف أنه لا يفعل، فيرد السامع إذا حجت البقر على قرونها.

وهو مثل كما نرى مأخوذ من البيئة، ومن مظهر معروف فيها، بحيث لا يحتاج إلى تخيل، ولعله الآن اختفى لغياب مدلوله.

(٣٥) إذا لم ترد أن تزوج ابنتك :

«إذا أردت ألاّ تزوج ابنتك فاغلِ مهرها».

هذا مثل من البيئة، ويصلح لكل بيئة، وهو يعبّر عما يقع أحياناً مع بعض الأشخاص، أو منهم، عندما يضع أحدهم شروطاً فيها تعجيز تجعل الخاطب يفهم بأن واضع الشروط لم يضعها إلا تعجيزاً، ليخرج من الإحراج الذي وقع فيه، ويتلمس المخارج، ليجد الخروج في طلب لا يمكن للخاطب أن يقبله، فيبدي المرفوض إدراكه للأمر ويقول لمن خاطبه، أو لمن راح يشكو له: «إذا لم ترد أن تزوج ابنتك فاغل مهرها»، لا أظن أن هذا المثل يتردد على الألسن الآن بمقدار ما كان يتردد سابقاً في زماننا.

(٣٦) إذا طالت خطاها :

«إذا طالت خطاها فهي ربّاضة».

هذا مثل جاء عن تجربة، وعن مراقبة دقيقة، فقد لوحظ أن الحيوان الذي خطوته طويلة، ولمسافة طويلة، يربض سريعاً لأنه يتعب سريعاً، فعلى هذا يجب أن لا يُغَرّ الإنسان بالنشاط الذي يبديه الحيوان، فإنه سريعاً ما يزول. وهو مثل يُضرب لمن يغالي، خاصة من يغالي في أفعال قريبة من حدود الاستحالة. فإنه يقال له حينئذ إذا طالت خطاها فهي رباضة، أي أن المغالاة في القول تدل على اختلاق ما لم يكن مقبولاً، فالقائل حينئذ «أبو شلاخ».

(٣٧) حدارجا بدارجا :

تحدثت من قبل عن بعض الأهازيج، أو مقطوعات

السجع، التي كنا عندما نلهو نقوم بترديدها، ولها نغمة خاصة، تنحدر من جيل إلى جيل، مع تغير متوقع يَدخل عليها يسهم مع الزمن على فقدها لصورتها الأصلية، وهذا أحياناً يدخلها نطاق الغموض في المعنى، والبُعد عن الهدف، ولا يبقى لنا نحن الصغار إلا ما يتطلبه اللحن ويقتضيه إطرابنا.

و «حدارجا» طويلة نوعاً ما مما يجعلها عرضة للتحريف غير المقصود. وسنرى كيف تخرج أجزاء منها عمّا قبلها، ويكاد لا يكون هناك رابط بين الأجزاء، وأحياناً لا يكون لبعض الأجزاء معنى مثل هذا المطلع: «حدارجا بدارجا».

«حَدَارجَا بدارجا، من كل عين دارجا، والحبّة حبة اللولو، وتلالي مضرط الديك (لعلها تلادي) أي تشبه.

يا ديك حسن الأدياك، طار الشفّح مع اللفّح، لقيت عريبين، ياكلون ردتين، أكلت معهم لقمتين، وقلت: يا عمي يا با حسين، كم على عيد رمضان، سبعة أيام تمام. وحاديها وباديها وضرب القوس يعديها.

ولا ندري ما المقصود بالشفّح ولا اللّفّح؟! ونجد عدم ترابط بين الجمل في المعنى، فوجود عريبين والأكل معهم، لا دخل لها بأبي حسين، ولا بعيد رمضان، ولا نرى صلة بين الحادي والبادي وضرب القوس، ولكنها ذات لحن شجي ينسي كل ما عداه!

(٣٨) إحْدَي إبدَيّ:

هذه مثل سابقتها تماماً، وعلى نسقها في اللحن، والاستعمال، وأحياناً تربط بالسابقة، وكأنها جزء منها، وقد تكون كذلك، وضاع مع الزمن الرابط بينهما:

«إِحَديّ بْدَي، يا ناصر دَيّ، احذف قبّون ابن قبّون، غزيت للشام وجبتْ ظَبيّ، وأكلته نَيّ، وجان الذيب، حمر منقوش، يشد القوش على الباكوش».

ولعل لها بقية، وقد أنسيتها. أما الذي أنا متأكد منه اليوم، فهو أنه ليس من بين شباب اليوم من يعرف هذه الأمثال إلا من لعله نشّيء في بيئة مماثلة لبيئتنا، في القرى التي حافظت إلى وقت متأخر على عاداتها القديمة.

(٣٩) رواسب ؟ :

هناك بعض الأمور التي يوحي فعلها أو التعبير عنها بأنها رواسب عادات كانت سائدة في مجتمعنا في عصور مضت قد تعود إلى عصور الجاهلية، وما فيها من معتقدات فاسدة كانت سائدة، ومعتمدة على نظرات دينية أو وثنية، أو أنها اقتبست بإعجاب من

أمم عقيدتها تسمح بأمثال ذلك.

وكانت هذه الرواسب، الغريبة اليوم في نظرنا، سائدة في مجتمعنا عندما كنا صغاراً، ومراعاة مراعاة كاملة، تلفت النظر اليوم، وتدعو إلى التفكير.

سوف آتي هنا ببعض ما أذكره في هذه اللحظة عنها، وقد يكون هناك أخريات غابت عن ذهني الآن، وسأبين ما بقي منها وما اختفى حسب علمي.

ومن هذه الرواسب.

(أ) رفيف العين :

إذا رفّت عين إنسان توقّع أن حدثاً سوف يحدث له. يقول: رفّت عيني، الله يستر. وقد يبقى قلقاً حتى يمر وقت ينسى معه أن عينه رفّت.

(ب) طنين الأذن :

وطنين الأذن يؤوَّل كذلك، فإذا كان الطنين في الأذن اليمنى، فمعنى ذلك أن أحداً يتحدث عن صاحب الأذن حديثاً طيباً، وإذا كان الطنين في الأذن اليسرى فالحديث كان سيئاً. وقد يدخل شخص على شخص فيقول له، على طريق المزاح، ألم تطن إذنك، لقد كنا نتحدث عنك، فيرد الآخر مازحاً: «تمونون».

(جـ) حك العين :

(يعرك) أحد الأشخاص عينه بيده، فإذا انتهى من (العرك) قَبّل اليد، ولابد أنه استقرّ في الذهن أنه إذا لم يقبّل العارك يده يحدث للعين ما لا تحمد عقباه، هذه العادة لم تعد قائمة إلا عند أفراد معدودين من جيلنا أو ممن يلي جيلنا مباشرة. هل هذه العادة نبعت من

محيطنا أو دخلت علينا من ضمن ما دخل من عادات لا تتمشّى مع المنطق أو العقل أو الدين الإسلامي.

(د) (الحِكّة) في راحة اليد :

إذا أحسّ شخص بحكّة في راحة يده استبشر وقال هذه علامة أنّه سيأتيني مبلغ من المال. ولا أدري كيف يمكن أن يقرن بين الحكة والمال. وعندي أن الحكة أولى أن تأتي بعد استلام النقود الفضية، أو نقود النيكل أو النحاس، لما لها من طبيعة التعرض للتلوث، وإحداث حساسية في اليد.

(هـ) القفز من فوق المضطجع :

يضطجع شخص، أو ينام، فيضطر آخر، لضيق المكان، أن يمر من فوقه، فتقوم قيامة المضطجع أو

من حوله، فيصرخون على المار من فوقه، طالبين العودة من فوقه إلى المكان الذي جاء منه، ويصرون على هذا، لأن هذا الأمر إذا لم يتم بهذه الخطوة فإن المضطجع في خطر، والموت هو الأقرب إلى الذهن. مع أن القفز فوق المضطجع هو الذي فيه الخطورة، إذ لو تعثر ووقع على الرجل المضطجع لأضرّ به، وإذا كان سلم من الوقوع في القفزة الأولى فقد لا يسلم عند القفزة الثانية، ولكن العادات طاغيات.

(و) الوقوف فوق الرأس :

إذا وقف شخص فوق رأس شخص جالس، طلب الجالس من الواقف أن يبتعد عنه، قائلاً له: «لا تقف فوق رأسي فتشرب من دمي». وكنا نتصور ونحن صغار أن هناك أداة شفط خفيّة يمكن أن يسحب

الواقف بها دم الجالس. والعقل لا يقبل هذا اليوم، ولكن لايزال بعض الناس لا يشعر بالراحة من وجود شخص واقف على رأسه وهو جالس. فهل هذا بقية من معتقد جاهلي سابق، أو أن مجرد وجود شخص واقف فوق رأسك، يراك رؤية جيدة وأنت لا تراه، فيه من المضايقة ما يقلقك؟ وما أمر الدم إلا مبرر للاعتراض.

(٤٠) كلمة قبل الوثائق:

في هذه المذكرات سجلت ما كنت أعرفه إلى سن الثالثة عشرة، بحقائقه التي قد تكون مهزوزة المظهر، منحرفة الخيال، ناقصة التصور، يحكمها عقل الصغير وتصوراته، وما يخزنه مما يراه أو يسمعه، وهو كذلك معرض لسوء الفهم.

وقد وجدت في الوثائق التي سوف أعرض بعد قليل بعضاً منها ما يصحح ما قلته اعتماداً على ما لصق بذهني في تلك الأيام، أو يبرز حقيقة تقضي على شك في أمر ما، أو نقص في التصور، أو خطأ ممن روى لي الأمر، أو خطأ في أخذي منه.

ومن ذلك ما قلته عن جدي علي، وأنه عمل مع الدرويش في حقله، وأنه آل إليه هبة منه، وقد تبين من الوثائق أن حائط الدرويش كان في حوزة الأسرة قبل جدي علي، وقد يكون أول من ملكه عثمان والد جدي علي، أو حماد جد جدي علي (ص: ١٨١/ ١).

وهناك تفصيل لا يقبل الشك عن دكان جدي في المسوكف، وملكيته له، وما آل أمر الدكان إليه فيما بعد، وكل هذا موثق بتواريخه وشهوده (ص: ٢١٣/ ١).

ومن الأمثلة التي أشرت إلى استفادتي من الوثائق عنها «بيت الفهد»، واسم الشخص من البسام الذي اشتراه منه الوالد عبدالله. والغريب أنه لم يرد في الوثائق ما يدل على أن هناك شخصاً اسمه فهد! (ص: ٣١٠/ ١).

ومن الأمثلة كذلك بيتنا في الهفوف، وما قلته عنه سماعاً من عمتي موضي، وقد وجدت أن الوثائق تعطي فكرة واضحة وموثقة ومفصلة عن هذا البيت، وحدوده، وما يحتوي عليه من منازل ومرافق، وما أوصت به العمة مريم تجاهه، وما سمعتُه من قبل لا يخالف ما جاء في الوثائق، إلا أن الوثائق تعطي تفصيلاً أكثر، وتأتي أهميتها في التواريخ التي تذكرها، والشهود الذين حضروا، ومن كتب كل وثيقة (ص: ١٣٤/ ١).

هذا جانب من فوائد هذه الوثائق، وهناك فوائد تجنى من بين أسطر الوثائق عن حياة الناس حينئذ، وعن تعاملهم، وعن دقائق حياتهم، واعتمادهم في وسيلة معاشهم على الزراعة، وتُظهر هذه الوثائق انتقال بعض الأملاك الزراعية عن طريق الإرث، مما يجعلها عرضة للتبعثر إلى حيازات صغيرة، فيها صبرة (حكر) وضحايا، وقِرَب للمساجد، وعشاء في رمضان.

وقد يأتي رجل قادر من الأسرة ويشتري بعضها، فتعود إلى حجمها السابق، أو تقرب منه، وقد يبادل أصحابها بأملاك أخرى، وهذا ما لاحظت أن جدي علي فعله مع إخوانه وأخواته.

والمرء لا يمل من التمعن في هذه الوثائق، ويخرج منها بحقائق مخبأة لم تكن تخطر بالبال، ففي إحدى

الوثائق التي اطلعت عليها ما يشير إلى أن الدرويش اسمه علي، وأن له ابنة، مما يدل على أنه تزوج في عنيزة، وقد يكون هناك وثائق عندنا أو عند غيرنا مما يعطي فكرة عن هذا الرجل. والغريب أن بقية الوثائق لا تذكر اسمه الحقيقي، وتكتفي باسم الدرويش.

ومن الأمثلة كذلك أن الوثائق تقف في نسب جدي عند علي العثمان الحماد العثمان؛ إلا أني فهمت من العم محمد السليمان الخويطر[1] أن والد عثمان الأخير هذا اسمه علي، وقد يكون علي الحميد الذي لقب بخويطر، وهو قريب من الصحيح، ويبدو أن الاهتمام في الوثائق بعثمان ووالده حماد وجدّه عثمان جاء من أن هؤلاء حازوا مزارع وصار لهم أملاك،

(١) محمد السليمان السعد الحماد المحمد السعد الحماد العلي.

ولهم إخوان وأخوات، أما الجد الأعلى علي (خويطر) فلم يكن مثلهم، ولعله فقط أسس العمل الذي آل دون وثائق إرثاً لأبنائه، وما قد يكون له من بنات.

ومن الأمثلة كذلك ما رواه العم محمد السليمان الخويطر من أن علي الحميد (خويطر) عندما سمع قول الصبية إنه «خويطر»، واستشعر من ذلك احتقارها له، قال الأبيات الآتية، وقد يكون انتقالها من رواية إلى رواية قد أثّر على بعض الكلمات والوزن والأبيات التي سمعتها:

أظن يا بنيّه ما نيب من توطا حباله

ولا من يَقضِي بالونين الحسايف

ترى عبد الشيخ كِد راح راسه

واظن راس الشيخ أقضي به تال الحسايف

وحسب الرواية الأولى الشيخ المشار إليه هو ابن معمر أمير العيينة حينئذ.

ومن الأمثلة كذلك بعض الأمور التي يحسن تدارك ما سبق أن قلته عنها أمر يخص عمتي حصة ـ رحمها الله ـ فقد كنت أظن أن أكبر أولادها عبدالله، ولكني عرفت أن لها ابناً اسمه ناصر، ولم أدركه فقد توفي وهو شاب.

وهو الذي تحدثت عنه، وذكرت أنه أخرج الوالد من (الحراج) الذي دخله الوالد ليشتري بعيراً ليذهب عليه إلى البر حيث إبله، إذ قد سمع عن إن الراعي قد أدخل معها جملاً أجرب، فأراد أن يبادر ويذهب إلى هناك ليبعد البعير الأجرب (ص ص: ٢٢٠، ١/٢٢٣).

(٤١) عنيزة وحاراتها وبعض معالمها:

والكتاب على وشك أن ينتهي تنبهت أني في معمعة تداعي الأفكار لم أتطرق إلى الحديث عن أحياء عنيزة، وهي صورة من الصور التي يبقى الكتاب ناقصاً بدونها. فهي تُري سعة المدينة، وبعض الأسماء لها توحي بالمعاني التي أوحت باختيار الاسم، وأغلبها أخذت من أسماء أشخاص، قد يكونون هم أول من اختطها.

من هذه الأحياء مما كنت أعرفه جيداً، أو أسمع به، لأنه بعيد عن بيتنا، وليس في طريقي إلى المدرسة، ولا إلى بيت أحد أقربائي، الأحياء الآتية:

الخريزة، العقيلية، الضبط، الجناح، الجوز، البرغوش (الجادة) الشعيبية، الفاخرية، الشريمية، الضليعة، المسهرية، مليحة، البويحة، العفينة، الجُدَيِّدة، أم حمار

(خمار)، هلالة، المسهرية، المداق، الغرّافية، قصير قوت.

ومن المعالم الأخرى:

المجلس، سوق مصعد، باب السافيَة، البعجا، شقيرة، البابية، سوق المسوكف، سوق الهفُّوف، سوق الفرعي، الحيالة، الدغيثرية، سوق القاع، سوق الحريم، السلسلة، باب الخلا، (باب ساير) سوق الفرعي، المقيبلة، سوق السدرة، سوق الحسون، سوق المعثم، سوق العثيمين، سوق الذكران.

هذا ما أتذكره من أسماء الأحياء والمعالم، ولا أشك أني قد أنسيت أسماء أخرى. ولم أخرج عن عنيزة، وإلا فهناك أسماء تتردد على الألسنة، مشهورة مثل: الغضا، وصعافيق، والصنقر.

وبعـــد:

ما جاء في هذا الجزء هو صور كانت تحوم في سماء حياتنا، داخل بيوتنا وخارجها، وهي صور لا يكمل رسم مجتمع تلك الأيام إلا بها. ونجد، نحن أبناء ذلك الجيل، لذة في استدعائها إلى خيالنا، ولا غرو فتذكرها يعيد لنا شبابنا وهو أجمل ما في سير الحياة.

لقد بَهتت بعض هذه الصور، واختفى شيء كثير منها، وحلّت محلها أحياء وبيوت وشوارع أخرى بعيدة عن تلك الصور. لم يعد للمدن شخصية تميز بعضها عن بعض، أصبحت نسخة واحدة من تخطيط موحد، وإن اختلفت رسوم المباني، وتصميمها وألوانها، ولكن تخطيطها العام واحد، وشوارعها متماثلة ومتطابقة.

وبعد عدد من السنوات يزحف نمط جديد على النمط القديم، فيحكم عليه بالهدم، وإحلال جديد محله.

***

ملحق الوثائق

بيت الهفوف (أ)

هذه وثيقة مهمة توضح مرحلة من مراحل تملّك بيتنا في حي الهفوف. وقد وقفته العمّة (مريم)، وحبست بيتها الكائن في محلة الهفوف من بلد عنيزة، بين بيت الحيدان الزامل وبيت الغرانيق، وقفاً لا يباع ولا يوهب، واستثنت سكناه مدة حياتها وبينت ما يأتي من مردود بعد ذلك لعمّاره. ومن الوثيقة يتبين أنه كان لها زوجان أولهما رشيد الناصر الشبيلي، ثم إبراهيم بن محمد بن عامر. وقد وكّلت أخاها عليّ إلى أن يبلغ ابنها عبدالله الإبراهيم رشده، وهو المقدم في أمر البيت، وإن اغْتنى عن البيت، فأخوها عليّ، إلى آخر ما جاء في هذه الوصية الضافية، وتاريخها ١٢٩٤هـ.

وهذه الوثيقة هي التي خولت لنا البقاء في البيت، وإخراج الضحايا، ويبدو أن عبدالله العامر سافر إلى الكويت ولم يحتج إلى البيت، وسلالته موجودة الآن هناك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الموصى بتحريره والداعي لتسطيره هو ان المرأة المكلفة الرشيدة [illegible] مريم العثمان
لما دخلت [illegible] اثبت في صحة من عقلها وبدنها ابانها وقفت وحبست بيتها
المعروف لها الكائن في محلة [illegible] بلد عنيزة بين بيت [illegible] ابن الزامل
وبيت العثمان وقفا ناجزا [illegible] سكناه
مدة حياتها ثم بعد ذلك ما فضل من ريعه [illegible] في عمارة
وبعد العمارة يصرف الريع في ضحيتين احدهما [illegible] والاخرى [illegible] لها
ولزوجها رشيد الناصر [illegible] وابراهيم المحمد العامر [illegible] تخرج
من الريع [illegible] على نظر الوكيل [illegible]
به في رمضان على الفقراء والوكيل على ذلك اخوها علي [illegible]
[illegible] قبل [illegible] ابنها [illegible] عبد الله ابراهيم بن عامر وبعده
ان [illegible] على علي والفاضل بعد
اخراج ما ذكر [illegible] فالناظر [illegible] الحاجة [illegible] ان يسكن
وان [illegible] ما ذكرنا [illegible] الحاجة [illegible]
[illegible] في درجتها [illegible]
من ذكر [illegible] ما ذكر [illegible] الانثيين
[illegible] على ذلك عبد الله
[illegible] ١٢٩٠
[illegible]
[illegible]
[illegible] الشيخ عبد العزيز [illegible] كاتبه عبد الرحمن
الناصر [illegible] وصلى الله على محمد وسلم

بيت الهفوف (ب)

في هذه الوثيقة حلقة تكمل حلقات انتقال بيتنا الرئيس في حي الهفوف بعنيزة من مالك إلى مالك، وكان البيت ملكاً للؤلؤه بنت فهيد آل مفلح، فباعته على محمد العبد الرحمن القاضي، وحددت الوثيقة ما يحويه من منازل، وما يحيط به منها. وذكرت أن هذا نصيب لؤلؤة من إرث أبيها ومن إخوتها عبدالرحمن وعبدالله وعبدالمحسن، ومن إرثها من أمها.

وذكرت الوثيقة تفاصيل أخرى وافية، ثم بيعت على محمد العبدالرحمن لصالح عويّد المحمد الشعيبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

موجب ذلك بان لولوة بنت فهيد المصلح تقررت في محل حكمي اقرارها شرعا انها باعت
بيتهم المعروف في المعشوف بين دار الغريس ودار عبد الله الحمود على محمد بن عبد الرحمن العنقري
بجميع حقوقه وحدوده وما يتبعه من مراح وبئر ونخل وتابع ذلك النخل المعروف
في جنب دار الحيدان باعت ذلك بثمن معلوم قدره وعدده اربعمائة ريال اثنان و
خمسين ريالا وقبض المذكور الصادر منها لو ولدة نصيبها من ابيها ومن اخيها عبد الرحمن
وعبد الله بن ... ومن امها وتابع ذلك نصيب ... عبد المحسن الوصي به
لو بنيا وكيلة كذلك وكل الكاتب محمد بن ... على بيع نصيب اولاد مصلح بن محمد الفهيد
وهو ... من ابيهم ... عبد المحسن ... نصيب عبد المحسن من البيت
وما يتبعه ... اولاد مصلح الاصاغر واما البنات المرشدات الثلاث
منيرة التي امها بنت ... [illegible] ... تشهد عندي
محمد ... [illegible] ... اخوات في بيع ... محمد بن سلمان ... اقرارها
نصيب ... المذكور من الدار المذكورة ... المذكور
... [illegible] ... المذكور ...
عبد المحسن وبنات مصلح الثلاث المذكورات ... عندي ... المذكوران
بان ... اولاد مصلح الاصاغر ... [illegible]
... [illegible] ... الاصاغر ...
... [illegible] ... عبد الله الفهيد ...
... مصلح ... [illegible] ... عبد الرحمن
بان ... الدار المذكورة وما يتبعها اشتراها العويد ... [illegible]
هذا ... البيع العويد المذكور ... [illegible]
... [illegible] ...

بيت الهفوف (ج)

هذه وثيقة تشير إلى الوثيقة السابقة المؤرخة في ١٢٩٤هـ وهمّش عليها في عام ١٣١٣هـ عن بيت الهفوف، وهو يقع بين دار الغرينيقي ودار حمدان الحمود. وفيها يقر شخص اسمه أحمد الفهيد الأحمد بأنه هو وأخاه جار الله ليس لهما شيء في البيت، وأنه خاص بإخوانهم الذين والدتهم مريم. وتاريخ الوثيقة ١٦ رجب ١٣٠٥هـ.

شهد عندي محمد بن سليمان بان احمد العبد الرحمن اقر عنده بان البيت المذكورة اعلاه

الذي في محلة الصفوف بين دار العز منيعي ودار حمدان الرحمود ان ماله فيه

شيء ولا لاحد جار الله وهو حق احمد الذي ابا هم من سنين وفي ضبطها دقة احمد

حال اقرار احمد عنده انه هو وكيل جميع احمد انه هكذا شهد به محمد بن سليمان

كتب شهادته بامره محمد السليمان العنقري البسام حرر في ١٣٠٠

١٩ ا ب

بيت الهفوف (د)

هذه وثيقة مفصلة وموضحة، وتفيد أن جدي علي العثمان الخويطر اشترى من عويّد بن محمد الشعيبي بيته الكائن في الهفوف بين دار الغرينيقي ودار حمد الحمود، وقد فصل في منازل البيت وما يتبعه، وذلك في عام ١٢٩٤هـ.

ثم هُمّش على الوثيقة بأن المبيع يخص أخت جدي مريم العثمان، وذلك بتاريخ ١٣١٣هـ.

لاشتمال البيع على الصحيح بايجاب وقبول بتفاصيل الاثنا فيه والاخبار [illegible] ذلك

[illegible] علي الحمدان المسفر قال ذلك وانه شاهد به على الحمد [illegible] سنة ١٢٩٢

ونقلته من خط الشيخ بعد معرفة يقينا على [illegible]

بسم الله

اقر عويد العلي الشعيبي بانه باع بيته المذكور وجه الورقة الكائن في محلة الكنهوفا

بين دار الغريشي ودار حمدان العود على علي العثمان الحمادي الخويطر بثمن

معلوم مقبوض في مجلس العقد قدره عدد خمسمائة ريال وعشرون ريالا

فرانسه والبيع شامل جميع حقوق البيت وما يتبعه من سراج ونخل

وغرج الجسو كذلك النهر المعروف في جنب بيت لعيبان وجميع ما ذكر

داخل في البيع وحقوقه وحدوده كما ذكر وجه الورقة انتقل الملك

المشتري يتصرف فيه تصرف الملاك في املاكهم وذوي الحقوق في حقوقهم

من غير معارض ولا منازع ولم يبق فيه للبائع حق ولا دعوى بوجه

من الوجوه الشرعية لاشتمال البيع على الايجاب والقبول شهد على ذلك

صالح العبدالله البراهيم البسام وشهد به كاتبه عبدالعزيز [illegible] المانع

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم في ٢ ذي الحجة سنة ١٢٩٦

[illegible] ان المبيع المذكور اعلاه [illegible]

[illegible] هكذا اقر [illegible] سليمان [illegible]

[illegible]

[illegible] وشهد به كاتبه عبدالله [illegible] سنة ١٣١٣

بيت القاع ـ الفهد (أ)

لا أدري لِمَ كنا نسميه بيت الفهد، وهو البيت الذي أضافه الوالد لتوسعة بيتنا، بيت عمة الوالد مريم. وهذه الوثيقة تبين مرحلة من مراحل تملك هذا البيت، وتشير إلى أن الذي باعته على الوالد هي منيرة الحمد الإبراهيم البسام. وهذا المبيع هو من حصتها من دار أبيها، وهو إرثها من أبيها وأمها، وباعت كذلك ثلث أمها من البيت، وبيّنت الوثيقة حدوده كما أعرفها.

وكاتب الوثيقة الشيخ عبدالرحمن الناصر السعدي في ٢٨ ذذي الحجة من عام ١٣٤٨هـ.

ويبدو أنه انتقل إلى ملك عمي إبراهيم في ٢٩ صفر ١٣٦٥هـ هبة من الوالد، ثم بيع على أبناء محمد وسليمان العبود عام ١٣٧٣هـ، وهناك أسهم في البيت اشتراها الوالد في ٢٩ صفر عام ١٣٦٥هـ من حمد السليمان البراهيم البسام.

بسم الله الرحمن الرحيم

قد باعت [illegible] العلوية [illegible]

[illegible] السيد [illegible] وابن [illegible] المشتري [illegible]

[illegible] جميع حصتها من دار ابيها الكائنة في [illegible] المعروفة عند البايع والمشتري [illegible]

من ابيها [illegible] وكذلك باعت ثلث [illegible] البيت [illegible]

[illegible] ما ثبت [illegible]

[illegible] البيع [illegible]

[illegible] بالايجاب والقبول [illegible] البيع [illegible]

[illegible] المذكورة [illegible]

[illegible] شرقي [illegible] جنوب بيت [illegible]

[illegible]

وكان تحريره [illegible] ٢٨ محرم ١٣٤٨

[illegible] ١٣٤٢

[illegible]

بيت القاع ـ الفهد (ب)

هذه وثيقة بخط الوالد رحمه الله يهب فيها بيت القاع إلى العم إبراهيم ـ رحمه الله ـ والجميل في هذه الوثيقة بجانب أهمية مؤداها وتاريخها أنها جمعت بين خط الوالد بيده، وخط عمي إبراهيم بيده، وخط عبدالعزيز المحمد العوهلي، وناصر الحمود العوهلي أبناء عمتي حصة ولادة ورضاعاً، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته.

بسم الله الرحمن الرحيم

قد وهبت الوسوم الذي في بيت البسام المعروف في جدار
بيت عمتي مريم العثمان وهي الذي يشترى من حق السليمان
الإبراهيم البسام حيث بالدية المذكور حصل من السبب المذكور
موصي الكتب الموجود قد وهبت ذلك للأخ إبراهيم العلي
الخنيطي ولا عن ما ذكر تحرر

كاتبه
عبد الله [illegible]

١٢٦٥
٢٩ صفر

يعلم من يراه من علوم بأن هذه الأحرف هي خط عبد الله [illegible] المذكور أعلاه
وهي هبته [illegible] إبراهيم العلي الخنيطي في ١٤ جماد الثاني سنة ١٢٦٥

نعم الأقلام المذكورة أعلاه هي أقلام من ذكر [illegible] العبد [illegible]
نعرفها يقيناً ونشهد عليها بدون تردد ونحن [illegible] وكفى

شهد بذلك
عبد العزيز [illegible]

شهد بذلك
ناصر المحمد [illegible]

١٢٦٥
٢٤ جا ١٥١

دكان المسوكف (أ)

تحدثت في المذكرات عن دكاننا بين المجلس والمسوكف على اليسار للمتجه للمجلس. وهذه وثيقة مؤرخة في ١٤ شوال عام ١٣٣٦هـ تبين أن الدكان مشترى من صالح الحمد المحمد البسام، مع تفصيل واف عن الدكان وأرضه وحدوده، وهو واحد من اثنين، والثاني منهما لمحمد الناصر العوهلي.

م الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده
موجب تحريره وتسطيره بان الدكاكين الذي بين المجلس
والمستكف الى المحدرت الى المجلس شهن على البسره
بالا انا يا صالح الحمد الحمد البسام بعت ارضيتهن
على علي العثمان بن حمد بطي لان مصابحهن وطو
هن ما هف مع البيع لاتهن لحوق عبد الله والثمن
ستمائة ريال مقبوضات بالوفا والتمام شهد
على ذلك عبد الرحمن الحمد العبد العزيز البسام و
شهد به كاتبه عثمان الحماد بن حمد بطي وصلى الله
وسلم على سيدنا محمد واله وصحبه اجمعين حرر
رجب ٣ ١٣٣٣
الدكاكين المذكوره يحدهن من شرق دكاكين
حلها لعبد الرحمن البسام ومن قبله دكاكين الربعي والمشتري
لهن كون اعلا المرقه بين علي العثمان بن حمد بطي وعبد الله
العمر على انصاف شهد بذلك كاتبه عثمان الحماد بن حمد
بطي حرر شوال ١٢ ١٣٣٦

دكان المسوكف (ب)

هذه الوثيقة تبين مرحلة من مراحل تملّك جدي علي لدكانه في سوق المسوكف على يسار المتجه إلى «المجلس»، وهي قسمة الدكانين بينه ومحمد الناصر العوهلي، وكانا قد اشترياهما من صالح الحمد البسام، وصار لجدي علي الشرقي منهما، أي الذي يلي «المجلس»، ويلي دكاني سلمى العبدالرحمن البسام، وتاريخ القسمة ٢٢ ذو الحجة ١٣٤٠هـ.

وقد سبل الجد علي الدكان بالالتزامات التي عددتها الوثيقة، واستثنى غلة الدكان مدة حياته.

بسم الله الرحمن الرحيم

موجب تحريره بانه حضر عندي علي العثمان بن حمد بن مطر وصهره
الناصر العوهلي واتفقا على قسمة الدكاكين المذكورات
اعلى الورقة التي دارجات عليها من صالح الحمد البسام فكان
الدكان القبلي الذي يلي دكاكين البريدي لمحمد الناصر
العوهلي وصار لعلي العثمان ابن حمد بن مطر الدكان
الشرقي الذي يلي دكاكين سليمان العبد الرحمن البسام
هذا ما جرى بينهما شهد بذلك محمد الحمد العثمان بن حمد
مطر وكتبه عثمان الحمد بن حمد بن مطر [illegible] الحجة سنة ١٣٤٢

اقر علي العثمان بن حمد بن مطر بانه تسبل دكانه المذكور اعلى الورقة
الدارج عليه من صالح الحمد البسام الذي بين دكان محمد الناصر
العوهلي وهو قبليه ودكان الوسط العبد الرحمن البسام ثم جعل
في غلته ضحيتين واحدة له ولوالديه والثانية له ولا
ولاده فان فضل من غلته شي بعد الضحيتين يشترى
به البر عيش ويجعل عشي في جمعة رمضان فان
قصرت الغلة المذكورة عن ما ذكرنا فحسب الوكيل واحد
عن المذكورين [illegible] فان احتاج اولاده واولاد اولاده فهم اولى
[illegible] عليهم في ثلث التضحيه والوكيل على ذلك اولاده
[illegible] من بعدهم اولاد اولادهم [illegible]
[illegible] شهد بذلك محمد الناصر العوهلي وكاتبه عثمان
الحمد بن حمد بن مطر [illegible] الحجة سنة ١٣٤٢ وسنتي على غلته صدقة
حياته شهد به [illegible] وكتبه [illegible] العثمان المذكور

لجميع اهل الوصايا الذي
يكون [illegible] على كتبه [illegible]
[illegible]

حائط الدرويش (أ)

هذه وثيقة ورد فيها ذكر علي الدرويش الذي ذكرناه في المذكرات، وهذه توثق أن جدي علي العثمان الخويطر وعثمان الحماد قد صبرا أرضهما التي فيها سُبل علي الدرويش، وهي مؤرخة في عام ١٣٤١هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقر علي العمان بن حمو بيطر وعمار ومحمد ولد حمو بيطر بانهما صيرو محمد السعد الحاد بن حمو بيطر ارضهم التي فيها نسبه على الدرويش وحقهن من القليب والمنافذ وطريقهن وهي الارض التي شرق عن القليب معروفه بينهما بحده من جنوب وشرق السوق العابر ومن شمال ملك سعد الحاد صبر واصبه الارض المذكوره في ثلاثه اريل كل سنه في رمضان ومده الاجاره خمسا يه سنه مبتداهن جماد ثاني سنه ١٣٤٤ والمنتهى يعلم من المبتدا وصنع التسميه نسخ للاجاره شهد بذلك مع المقر الموقع وشهد به عبده السلطان السبيكي المعتمد باذا اقرا

حائط الدرويش (ب)

هذه وثيقة ثانية يرد فيها «حائط الدرويش» ولا غرو فإن كان جدي علي ورث من أبيه عثمان جزءًا من حائط الدرويش فأخته مريم العثمان ورثت جزءًا. وأوصت على جزئها أخيها علي وجعلت له التصرف كما فصلته، وتاريخ الوثيقة ٢٥ شوال عام ١٣١٦هـ..

بسم الله

شهد عندي عبد الرحمن الحمد العبد العوين النبهان و محمد عبد الله العبد العوين بان خالتهما مريم العثمان الحماد
الخويطر اقرت عندهما بانها وهبت اخاها علي العثمان الحماد نخل بيلصيبتي ارثها من امها
من املاك العوين به من العين وحنوبا نه وصبتها من المذكور من العين سدس يمين صيبة حماد الحمد
جار سح تحمينه وهو اعني الذي بيد حماد الحمد ويحد من حوبا نه سدس نسيع الذي بيد حماد حاسح تحمينه
اقرت انها وهبت صيبتها من جميع المذكور وهو ارثها من امها من ارث امها من ابيها حمد الخويطر
المطردي وكذلك شهدا المذكورين بان مريم المذكورة باعت على اخيها علي صيبتها ارثها من
ابيها عثمان الملك المعروف السعيد المسما حايط الدرويش ويحوش الذي يليه من شمال
الذي من حماد واخوانه وكذلك صيبتها من الدار وصيبتها من الحايط والدار تحمين بجميع وصيبتها
من الحويط سدس والغير يلحق صيبتها من الحايط والدار ارثها من امها وهو سدس ربع التمين
ساح بجميع وهو من ارثها امها من بنتها نوره اقرت انها باعت جميع صيبتها من جميع ما ذكرنا
بجميع حقوقه وحدوده وما ينسب من بير داره وطرف ذمي ذلك ومادم بالملك صبح بحلال
سبيل وعشرين ربية كل سنة يكون على المبيع فقط بما ذكرنا هكذا شهد الكتب بحقها وبها محمد
السليمان العبد العوين النبهان في ١٦ ربيع ١٣١٦ والبيع بثمن معلوم وصل البايع بالتمام وقبل الموصوف
الهبة وكذا شهد الكتب به وكتبه الفقير شوال ١٣١٦

حائط الدرويش (ج)

حائط الدرويش متغلغل في الوثائق التي تخص أبناء الجد عثمان الحماد العثمان، وقد تخلص كل من الورثة من نصيبه وجعله في أعمال البر.

وفي هذه الوثيقة يبرز جانب من جوانب المجتمع، وهو حاجة الناس إلى الماء البارد عندما يأتون في الصيف لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب والعشاء، وهذه الوثيقة نصت على أن يكون جلد الأضحية التي تخرج حسب الوصية يكون قربة تملأ ويُوتى بها إلى المسجد، وتاريخ الوثيقة ٢٥ شوال ١٣١٦هـ.

يشهد عندي عبد الرحمن المجاهد العبيدي البسام وعبد الله محمد العبيدي البسام بان خالتها منيرة العثمان الحماد الخويطر
اقرت عندهما بانها اوصت في حصتها ارثها من ابيها من الملك المسمى حايط الدرويش وحصتها منه
ثمن جميع الملك وهو ارثها من ابيها وجعلت قادم في غلته اضحيه ثم ابيها لها ولوالديها
[illegible] البيع ما زاد زيادة عن الاضحيه يجلد الاضحيه يسعا قربه تروى تطلع في وقت الصيف
[illegible] العثمان [illegible] ذريته وان احتاج
[illegible]
[illegible] العبيدي البسام [illegible]
على العثمان له التصرف في وصيتها ان راى نقله
مصلحة لمحتاجها فلعبد ذلك كتبه شهادة [illegible]

المطاريد والحويلي (أ)

هذه الوثيقة تُري صورة من صور انتقال الأملاك عن طريق الأمهات أو الزوجات اللاتي ورثن من آبائهن أو أزواجهن. وتُري تداخل الأسر، فهنا ما يشير إلى أن أسرة الحويلي قد زوجت بنتها لمنصور المطرودي، وهناك زيجة أخرى من آل ماضي.

وفي هذه الوثيقة أوكلت رقية بنت عقيل الحويلي ابنتها تركية بنت حمد المطرودي على الوقف الذي هو نصيبها من أبنيها محمد وعبدالله المنصور المطرودي، وتاريخ هذه الوثيقة شعبان ١٢٨٥هـ.

شهد عندي حاجي والعثمان ابو حسين لطيف ومحمد احمد المحمد العبد العزيز البسام بان مضاوي ومنيرة ومريم وهيا بنات عثمان
الحماد اقررن عندهما بانهن قد وقفن حصتهن ارثهن من امهن تركية الحمد الطرودي من الحايط المسمى حايط درويش
وهو تحتها ارثتها من زوجها على الحماد والعثمان وكذلك اقر علي العثمان بانه وقف حصته من الله من الملك المذكور وجعلوه
يصرف ريعه في اعمال البر وثوابه لوالدتهم تركية المذكورة فصار جميع حصتها ثمنها وقف لها كما ذكرنا هكذا شهدا
واقرا على كتب شهادتهما على جميع محمد السلطان العبد العزيز البسام حرر [illegible]

[illegible]

المطاريد والحويل والعاقولة (ب)

في هذه الوثيقة تظهر أسرة جديدة، قد ارتبطت بأسرة المطرودي، وهي أسرة رقية الثامر الحويل. ورقية هذه هي والدة تركية الحمد المطرودي والدة جدي علي، وفي العوشزيية ملك يسمى العاقولة سبلهُ جدي علي وهو دارج عليه إرثاً من والدته تركية، وهو دارج عليها إرثاً من والدتها رقية الثامر الحويل. وتاريخ هذا السبيل في ١٥ رجب سنة ١٣٥١هـ.

ورقية الحويل ورثت نصيبها من العاقولة من ابنها عبدالله المنصور المطرودي.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقر علي العثمان الحمادي خويطر بانه سبل حقه من العاقوله الذي بالعوشزيه
وانه له نصف سدسها وهو دار ربع عليه الله من والدته ودار ربع على والده
ارث من والدتها رقية الشامر الحويل وهي وارثته من ولدها عبدالله المنصور
المطرودي وعلي وقفه باعمال البر هو وما يلحق به من مغارسه
علي الحمد المطرودي والوكيل على ذلك اولاده عبدالله وابراهيم واولادهم
من بعدهم والذي يحتاج من الجميع يأكل ولا حرج واستثنى غلة
المذكور بحياته شهد على ذلك عبدالله الحمد العوهلي وشهد به كاتبه
ناصر الحمود العوهلي والله خير الشاهدين حرر في ١٥ رجب سنة ١٣٥١

القفارية والحائط والدار

هذه وثيقة تتحدث عن حماد العثمان الحماد الخويطر في عام ١٣٠٥هـ في شهر صفر، وتتحدث عن أخيه عبدالله وشقيقاته، وأخيه جدنا علي العثمان الحماد وشقيقاته وتتحدث عن اقتسامهم أملاكهم المعروفة بعنيزة وهي القفارية والحائط والدار التي في سوق سلام، والصفة والمراح الذي في محل الشعيبية.

حضر عندي حماد العماني الحادي خويطر وهو يومئذ اصالة عن نفسه ووكيلا
عن اخيه عبدالله ولخواته الشقيقات خديجه ومينا وحضر لحضوره اخوه
علي العماني بن خويطر حالة كونه اصالة عن نفسه ووكيلا عن اخواته الشقيقات
الاربع الموجودات الان نصاوي ومنيره ومريم وهيا ووالدته فاقتسما املاكهم
المعروفات في عنيزه وهن القفاريه والحايط والدار التي في سوق سلام والصفه
والمراح اللاتي في محلة الشعيبه اقتسما ذلك على ثلاثة عشر سهما بعد الثمن
لحماد واخيه عبدالله واخواته الثنتين ستة اسهم وايضا لهم نصف الثمن ولعلي
ولخواته الاربع المذكورات وايضا صفية على الحمد المطرودي زوجة نوره اخت
علي العماني المذكور لكاسبه وصيته والثلث على العماني نصف الثمن من زوجها
عيال وسدس بنتها نوره ونصف سدس ولد ابنتها نوره المذكوره صار لعلي العماني
توابعه المذكوره سبعة اسهم ونصف الثمن وصارت قسمة حماد واخيه عبدالله
واخواته الاثنتين وامهم القفاريه وصفة الشعيبه ومراحها والمراح
الذي بين الشنينه ودار ابن حسان وارضية تاليه من الحايط وقدر
طولها اربع وعشرون ذراعا وعرضها خمسة عشر ذراعا وصار قسمة علي
العماني هو وتوابعه المذكورين الدار المعروفة في سوق سلام والحايط المسمى
حايط الدرويش وفيهن زيادة مائة ريال واحد عشر ريال ونصف وجرى قبضهن
علي على اخيه حماد بمجلس المقاسمه بالتمام والكمال والصبر الذي في الاملاك والاسبال
كل صاير بالذي في سهمه القفاريه فيها سبعة آصع بر كل سنة والحايط
والدار فيهن عشرة آصع بر وربع قرش كل سنة وفي الحايط ثمان نخلات معروفة سبل
بكذا وتهن كل صبر بالذي عنده وتراضيا على ذلك واقرا بان كلا منهما اسقط
الغبن ولا لاحد على احد دعوى من جهة غبن ولا غيره وذلك بعدما شهد عندي حمد الجهيمي
ابن خويطر وابنه سعيد بان عبدالله الغايب واخواته خديجه ومينا موكلين اخيهم حماد
على قسمة التسعة المذكوره وقبض الزيادة كذلك شهدا بان علي العماني موكلا من اخواته الاربع المذكورات
على هذه القسمة وعلى دفع الزيادة وكل منهم راضين بذلك نصاوي قسمه صحيحه شرعيه
وشهد على ذلك ... المذكوران على صحة ... حماد ... علي الحمد ... سنة ١٣٠٩
وشهد بذلك المذكور محمد العقيل الحمود وكتبه كاتبه آنفا ... ١٣٠٠ ...
... حضر محمد ... المنصور المطرودي حال الكبر وكيلا لوالده على الحمد المطرودي
واقر انه مجيز هذه القسمة المذكوره اعلاه ... سنة ١٣٠٦

أريضة بين السنينيرية ودار الخشان

هذه وثيقة تبين أن حماد العثمان الحماد وأخاه عبدالله العثمان باعا على أخيهما علي العثمان أريضة بين دار السنينيرة ودار حمد الخشان.

رأيت إثباتها هنا لأنها تُري تداخل الأملاك بالبيع أو الإرث، وتُري انتقال الثروة من جانب إلى جانب، وتاريخها في عام ١٣٠٤هـ.

بسم الله

اقر حماد العثمان الحماد ابن خويطر واخيه عبد الله العثمان بانهما باعا على اخيهما علي العثمان
الحماد ابن خويطر الارضية الذي بين دار السبيله ودار حمد ابن خشان وهي الحوش
كذلك الارضية التي تليه وهي طولها اربعة وعشرين ذراع وعرضها خمسة عشر ذراع
وهي من قسمة تمت بينهم وبين اخوانهم سابق اقرا انهما باعا الحوش المذكور والارضيه
بثمن معلوم قدره وعدده واحد وخمسين ريال وصلتهما بالتمام والكمال وذلك بعد
ما شهد عندي حماد الحمد ابن خويطر وابنه سعد بان اخيتهما خديجه ومنيا وكلتا
المذكورين على البيع وتقبض فصار البيع ملكا للمشتري ولم يبق للبايع فيه
حق ولا دعوى شهد بذلك حمد المحمد العبد العزيز البسام وشهد به كاتبه محمد السليمان
العبد العزيز البسام
٢٦ ذي [illegible] ١٣٠٦

اقر علي العثمان الحماد الخويطر ان الحوش المذكور اعلاه
له ثلثه والثلثين [illegible] وهو ثلثيه لحماد [illegible]
ومريم [illegible] اربعة بينهم لكل واحد [illegible]
[illegible] وكلهم المذكورين [illegible]
شهد بذلك محمد [illegible] السليمان العبد العزيز البسام
[illegible]

الابتلاء بمنصب القضاء

هذه وثيقة لا تخلو من طرافة، وهي التي جعلتني أحرص على إثباتها هنا، والطرافة أن فيها ما يؤرخ لنفور العلماء من القضاء في ذلك الزمن وقبله، فيها يقول الشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر:

«حضر عندي....... حال ابتلائي بمنصب القضاء في عنيزة».

والجانب الطريف الآخر أن الأرض المذكورة في «القطيني» صبرت خمس مئة سنة تبدأ في ٢٦ صفر ١٣٢٠هـ.

الحمد لله وحده

حال

الداعي لتحريره هو انه قد حضر عندي حمد بن بن عبد الله الصغير
كونه وكيلاً من قبلي حال الابتلاء بمنصب القضاء في عنيزة وحضر بحضوره
علي بن عثمان آبا حماد آل خريطير فاقر حمد بانه قد صبر على ارض ثلث عمه ابراهيم
الكائنة في القطيني الذي يحده من شرق جوبة قليب دبيس ومن جنوب
السوق العابر ومن قبلة السوق العابر ومن شمال ملك نخل ابراهيم عم حمد
ثلث ارض المبيع المحدد صبر حمد على ثلث ارض الملك المحدد الذي يخص
ثلث عمه باجرة معلوم قدرها [illegible] ريالين الافرنسي كل سنة
دخول ذي الحجة لمستحقها ومدة الاجارة خمس مائة سنة ابتداؤها في ٢٦
ص سنة ١٣٣٠ واخرها يعلم من اولها وساقى حمد علي على النخل الذي
في ارض الثلث المذكور بالعشر لاهل الاصل ما دام النخل باقي في الارض فاذا
باد النخل دخلت في الاجارة المذكورة فلا يملكون غرس مكان النخل
بل تعود الارض لعله وصية الثلث من الاملاك داخلة الاجار واشترط احمد
علي على ان الحلوة التي طاحت انه يغرس في مكانها غرس تصير على سبالتها
مغارسه وكذلك الشقرا الطويلة التي في الزرنوق الطارف اذا عدمت
لغرس على بدالها عوضها غرسه يصير سبيل في مغارسه والغرس
الثنتين اللواتي في الزرنوق للموخى سبيل ما لعله الا عشير ثمرتهن
هكذا صدر بينهما والعود الذي في جوبة التفيحا لها السبل ما لعله الاعشر
الثمرة شهد على ذلك ابراهيم بن محمد الربيعي ودويش بن راشد وشهد به كاتبه
الفقير الى الله ابراهيم بن حمد الجاسر ٢٦/٧ ص سنة ١٣٣٠ وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم

هذا ما كان نص

هذه ثلاثة الاصول وادلتها

و يليها

« شروط الصلاة وواجباتها واركانها »

واربع القواعد

تأليف

شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب

اجزل الله له الاجر والثواب

و يليها

لمعة الاعتقاد الهادي الى سبيل الرشاد

تأليف

الامام العالم الاوحد شيخ الاسلام موفق الدين

عبد الله بن احمد بن قدامة المقدسي

و يليها قصيدة الامام ابي بكر ابن ابي داود في التوحيد

طبعت على نفقة عيسى بن رميح العقيلي

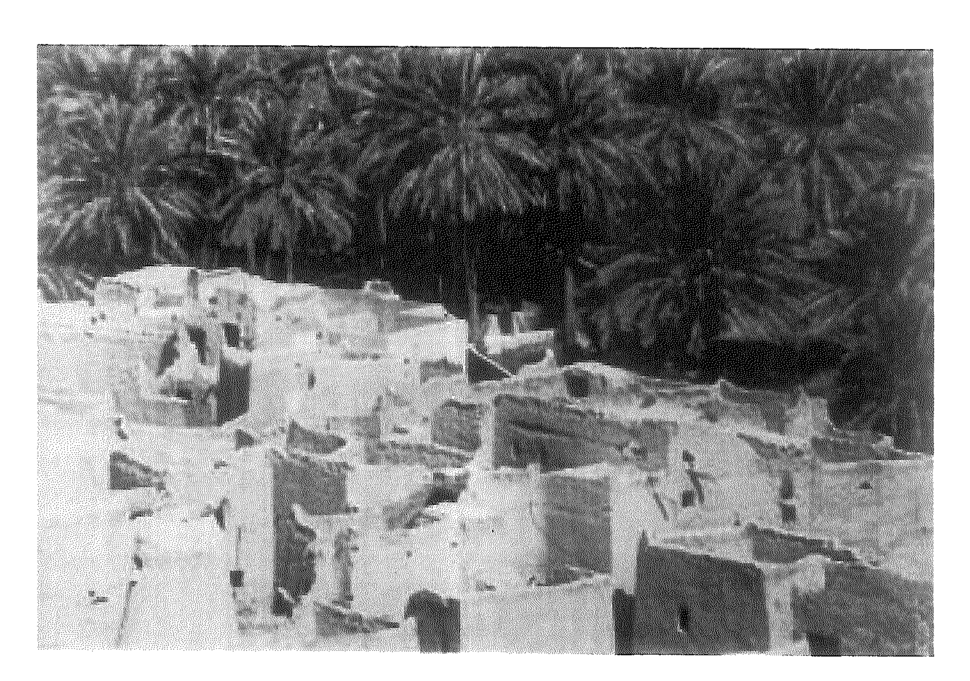
وقفاً اثابه الله اعظم الثواب

دمشق | مطبعة الترقي بمحلة القيمرية | العاصمة

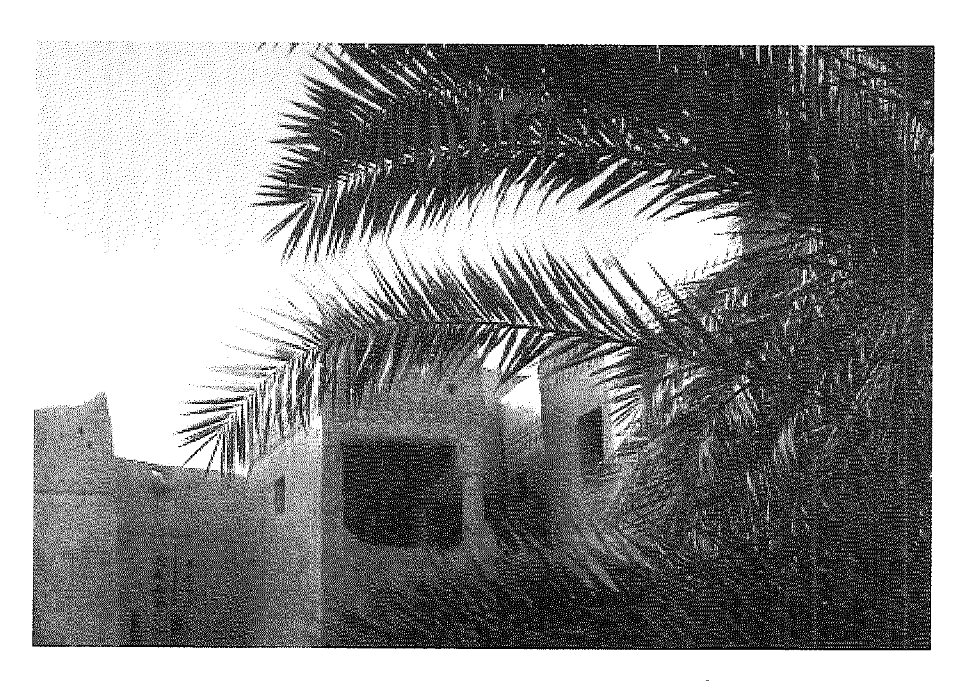
فيما يلي صور تمثل بعض ما جاء في سياق الكتاب من عمران ومظاهر حضارة أخرى، وهي نماذج تعطي شيئاً من الملامح، وليس كلها، وقد أخذت من مطبوعات بلدية عنيزة.

وقد تداركَتْ في بعض ما سجَّلته ما أبقته يد الإعمار الحديثة، أو سبقتها إلى تدوينه في هذه الصور قبل هدمه. وهذا قليل مما استطاعت تدوينه مشكورة، ومقدر لها هذا العمل.

ملحق صور لعنيزة



* منظر لبعض بيوت أحياء عنيزة قبل أن تُهدم، وهو مظهر يمثل منظراً مألوفاً فيها، البيوت الطينية المتراصّة، والأزقة الضيقة، والإطار الأخضر من أشجار النخيل، الشجرة الأولى، المهمة في نجد.



* منظر لأحد البيوت وقد باركته النخلة في مقدمة الصورة والفتحة الظاهرة في البيت من لوازم دخول الهواء والضوء، وهي سمة للمصابيح التي غالباً يتبعها روشن.



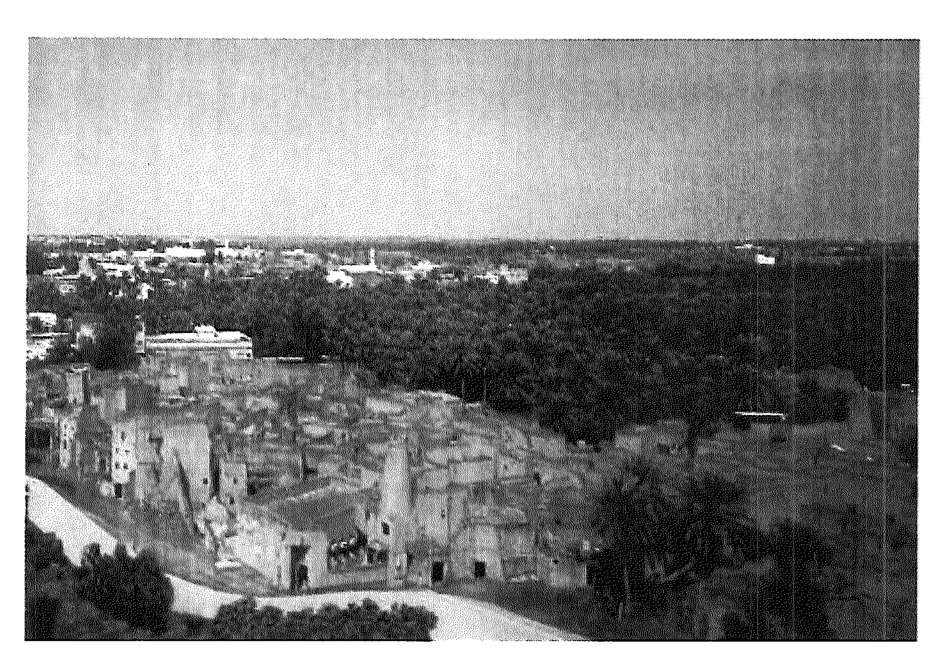
* منظر لأحد البيوت الكبيرة عند بداية هدم الأحياء القديمة، ويرى عدد من النخلات التي لا يخلو عادة بيت فيه حوش (مراح) منها.



* لقطة جانبية لمدينة عنيزة توضح المسطحات الخضراء فيها ملتحمة مع المنازل الشعبية الجميلة.



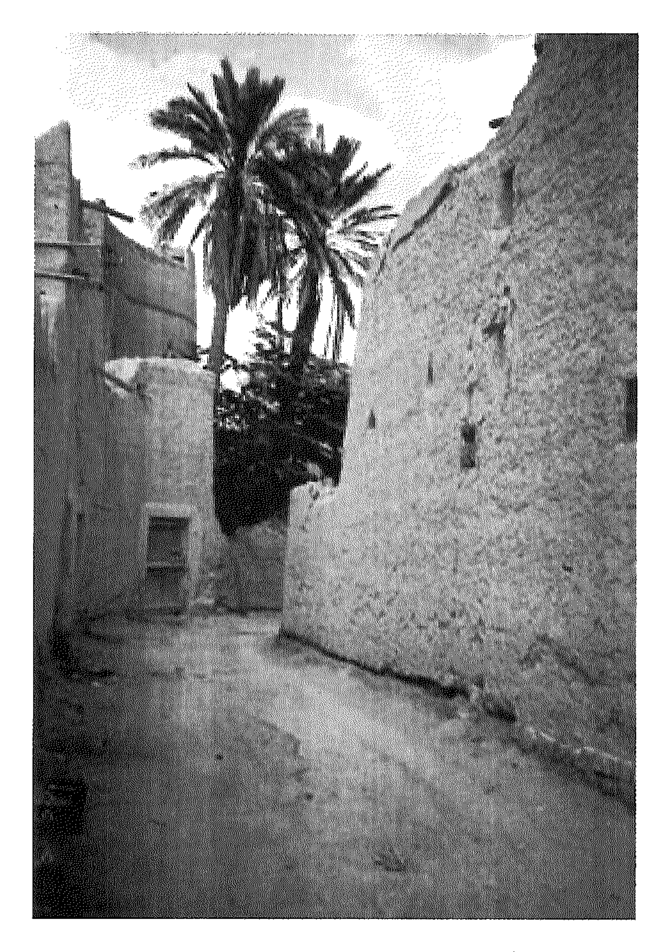
* منظر للسوق (المبيعة) في عنيزة في أوائل السبعينيات الهجرية.



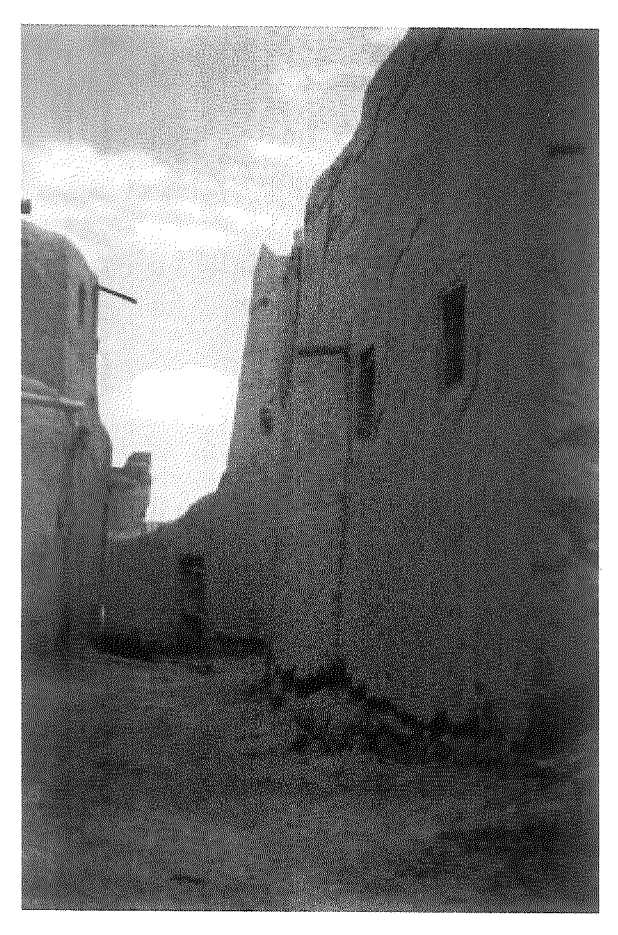
* منظر لبعض الأحياء القديمة قبل الهدم، وقد بدأ التوسع العمراني خلف النخيل التي هي من مكملات شخصية المدينة.



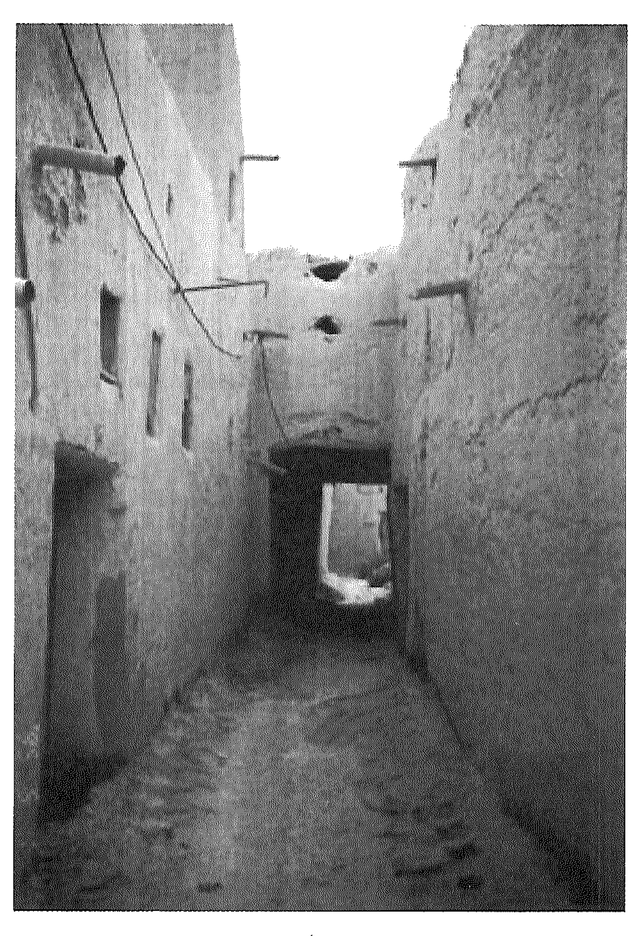
* صورة لبيت وبجانبه نخيل «عيادين» وأخرى قصيرة.



* صورة تُري تغلغل النخيل بين البيوت وفيها.



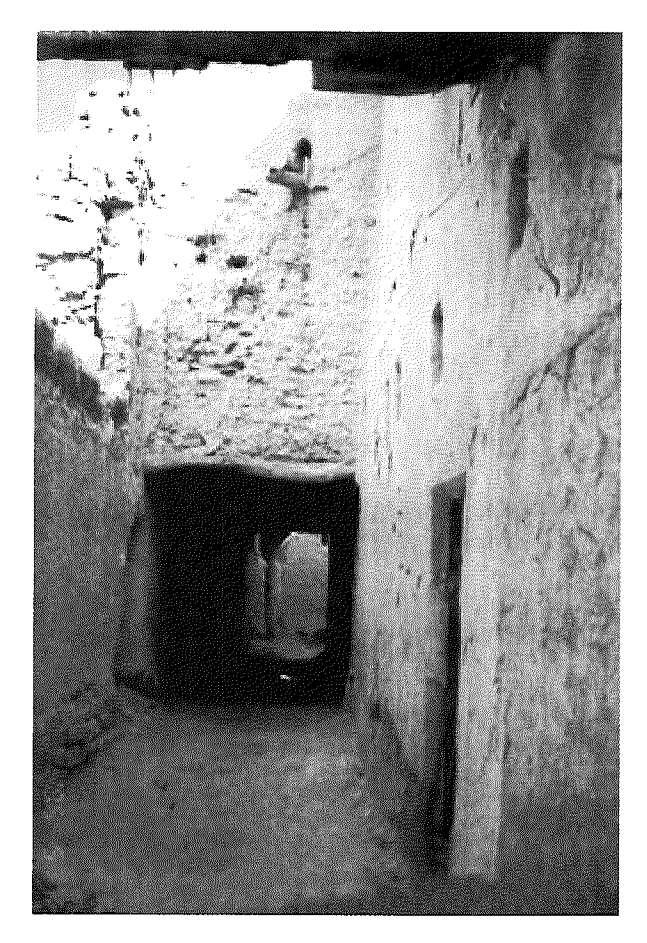
* شارع من الشوارع الواسعة نوعاً ما، وترى آثار السيول على أسس المباني، وعلى الأرض الترابية.



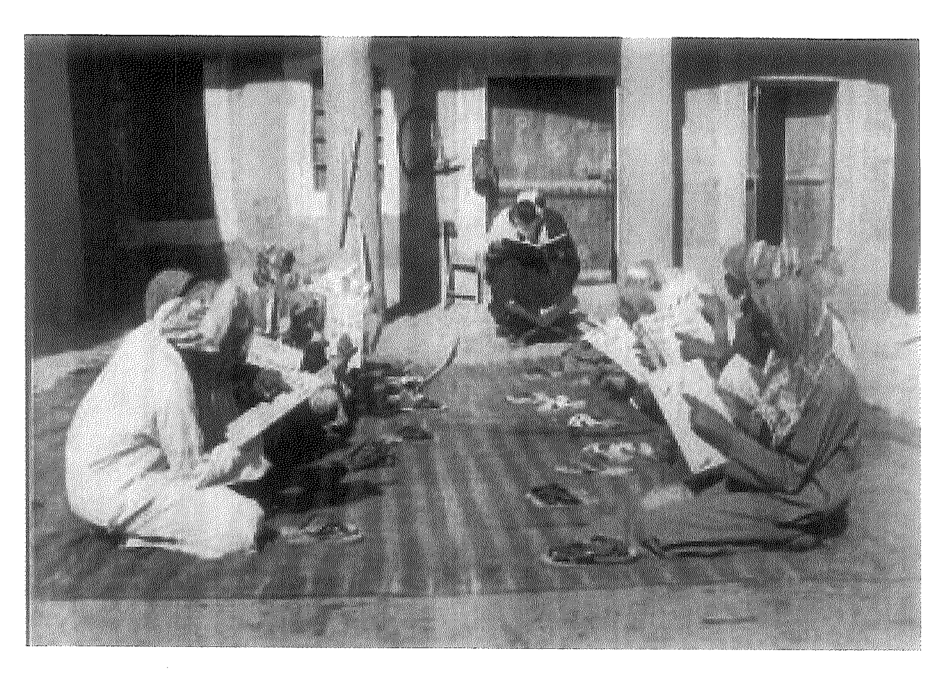
* هذا سويق يمثل نموذجاً للأزقة، وبه القبة التي سبق أن تحدثت عنها، وعن القيلولة للشباب فيها، والمرازيم واضحة وإلصاق أسلاك الكهرباء الحديثة فيها.



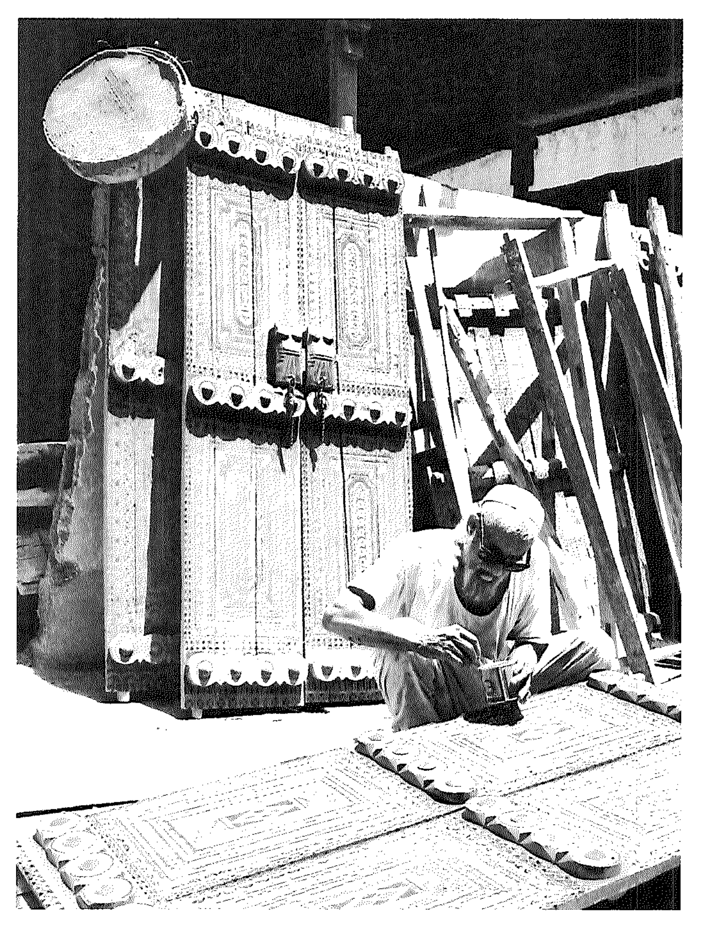
* مدخل خلوة مسجد.



❊ قبة من القب التي تصل بين بيتين، يُستظل بها عن الشمس وقت القيلولة، ولكنها موحشة في الليل، وهناك من يتبرع بإنارتها في الليل بسُرُج بدائية.



* صورة حديثة رتبت لتصور ما كانت عليه الكتاتيب في الماضي، ويُرى فيها كرسي وهو ما لم نكن نعرفه في زماننا في كتاتيبنا، وكذلك الحنبل والأحذية لم تكن مما يوجد في الكتاتيب، كنا نجلس على الأرض صيفاً وشتاءً.



* النجارة كانت من الصناعات المزدهرة في زمن صغرنا والصورة تمثل منظراً كان مألوفاً: أبواباً «مسنّدة» على الجدار، وهي جاهزة، والأخرى على الأرض تحت أنامل النجار يزخرفها، وهذه أبواب داخلية.

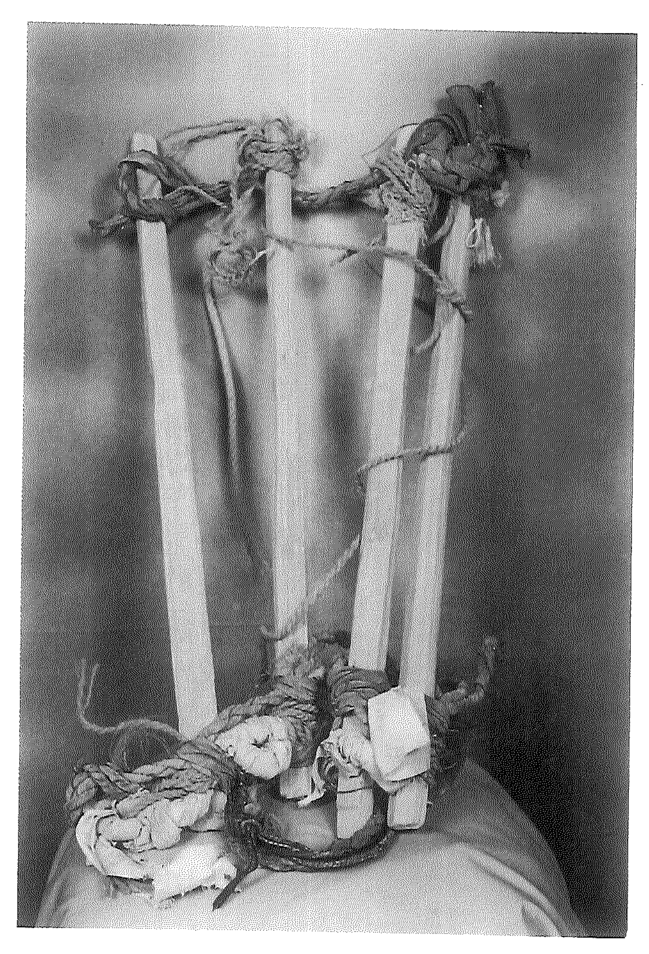
ملحق صور لبعض الأدوات



* «كعابة» جمع «كعب» وهي ملونة خلافاً لما كنا نعرفه في زماننا[1].

---

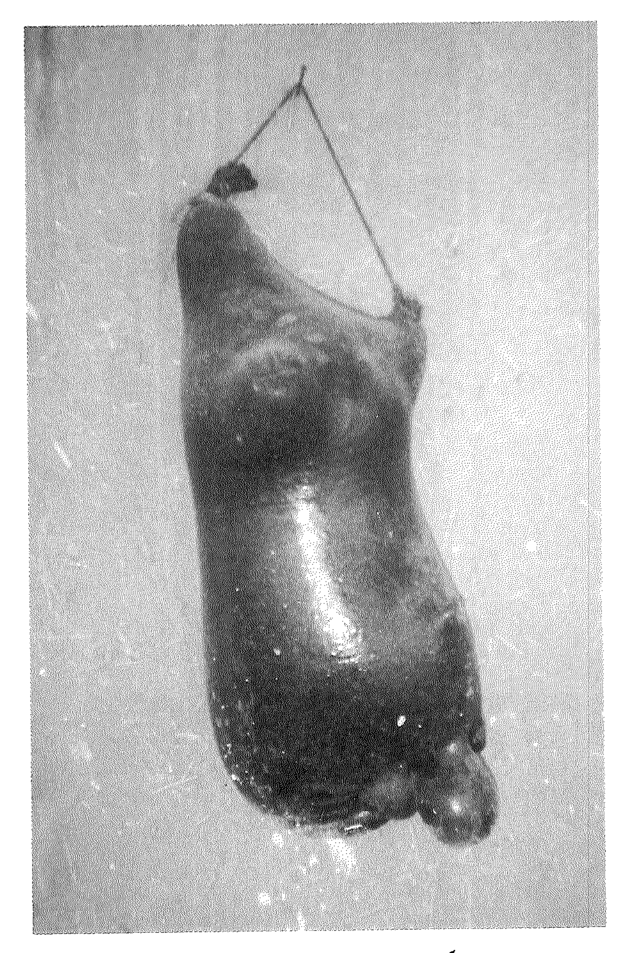
(١) (انظر: «الوسم» ٢/ ٣٣٥).



* هذا «ساجور» والجمع سواجير، وهو الأداة التي توضع على رقبة البقرة لتمنعها من أن ترضع نفسها، وهي النير باللغة الفصحى[1].

---

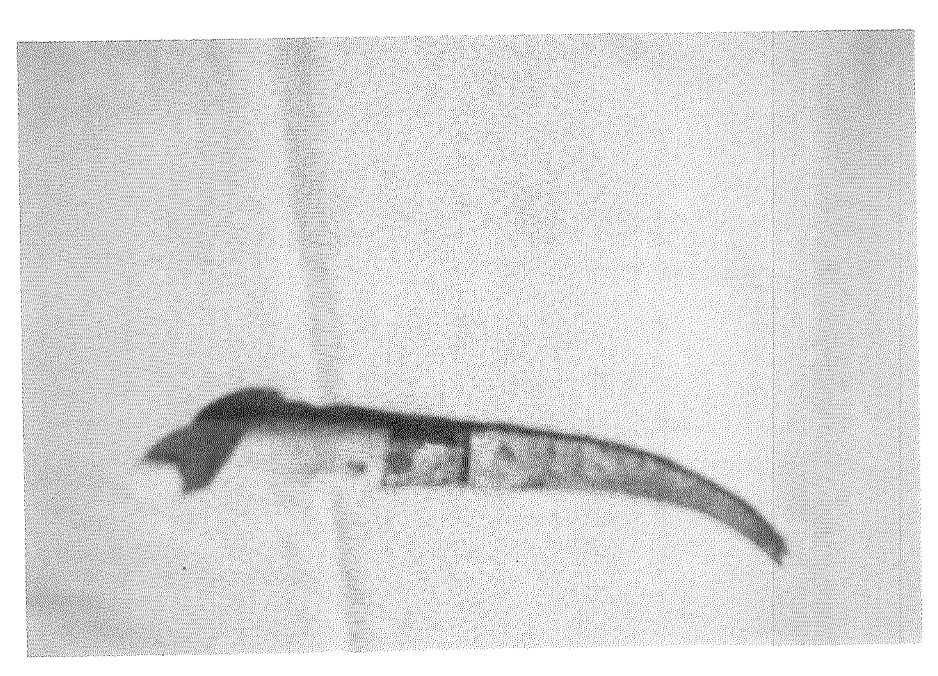
(١) (انظر: «الوسم» ٢/ ٩٩).



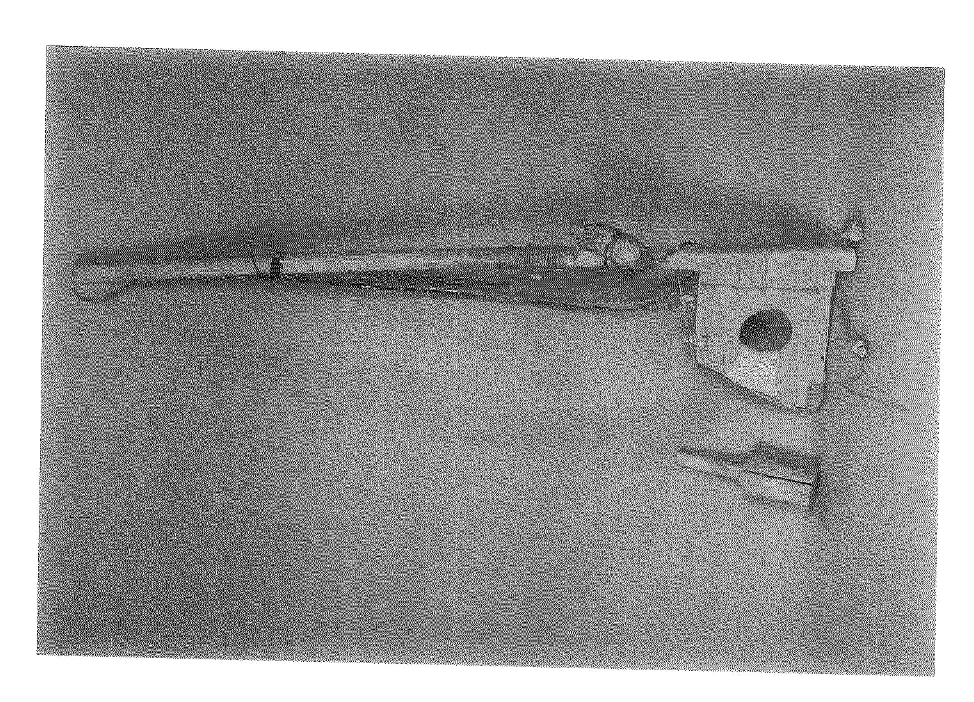
* هذه صورة «عكَّة» سمن تخرز من جلد بطريقة معينة.



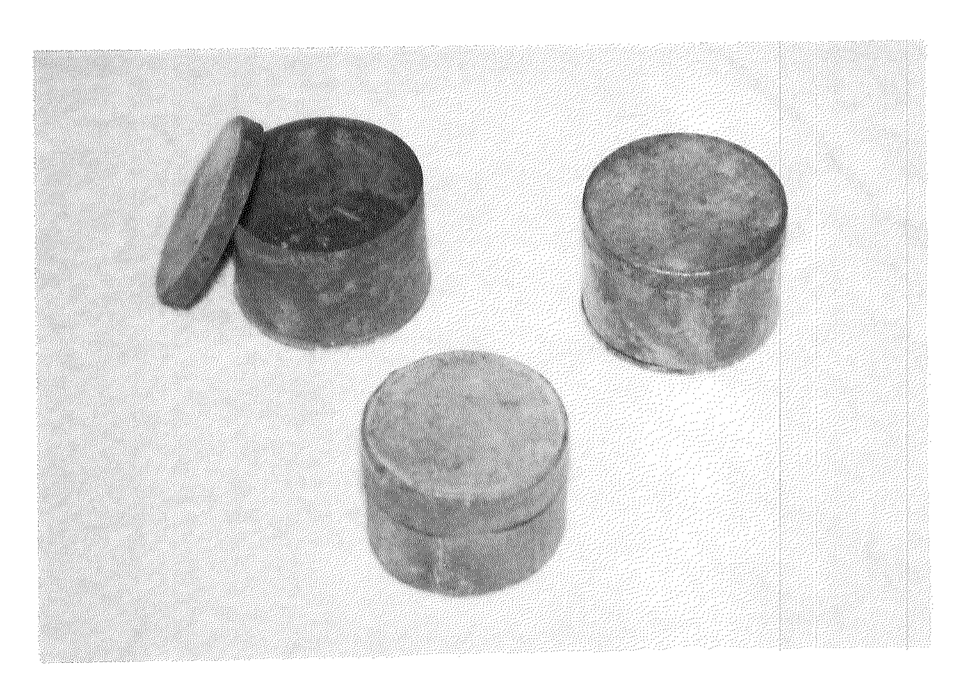
* نماذج من الغروب، جمع «غرب»، بها يُنزح الماء بالدواب غالباً.



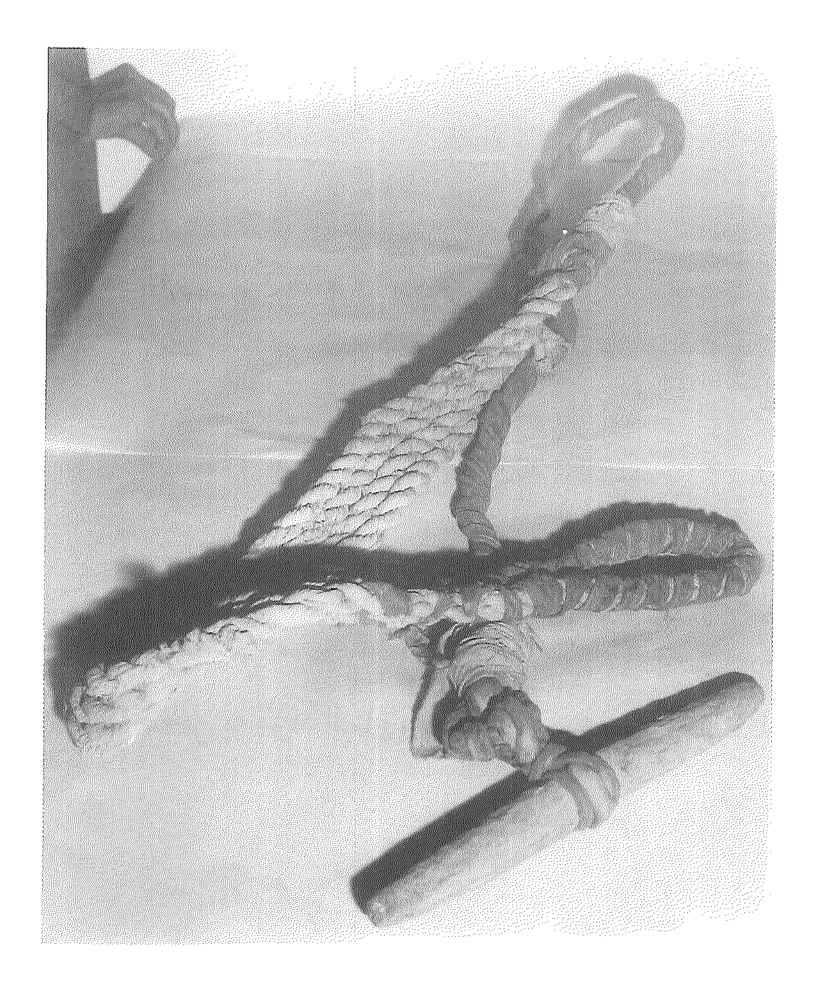
* مَخلَب لقص الأغصان، ومَحَشْ لحصد الزرع والحشيش والنَبْت. وهو كما يُرى مثل السكين إلا أنه منحني ومشرشر.



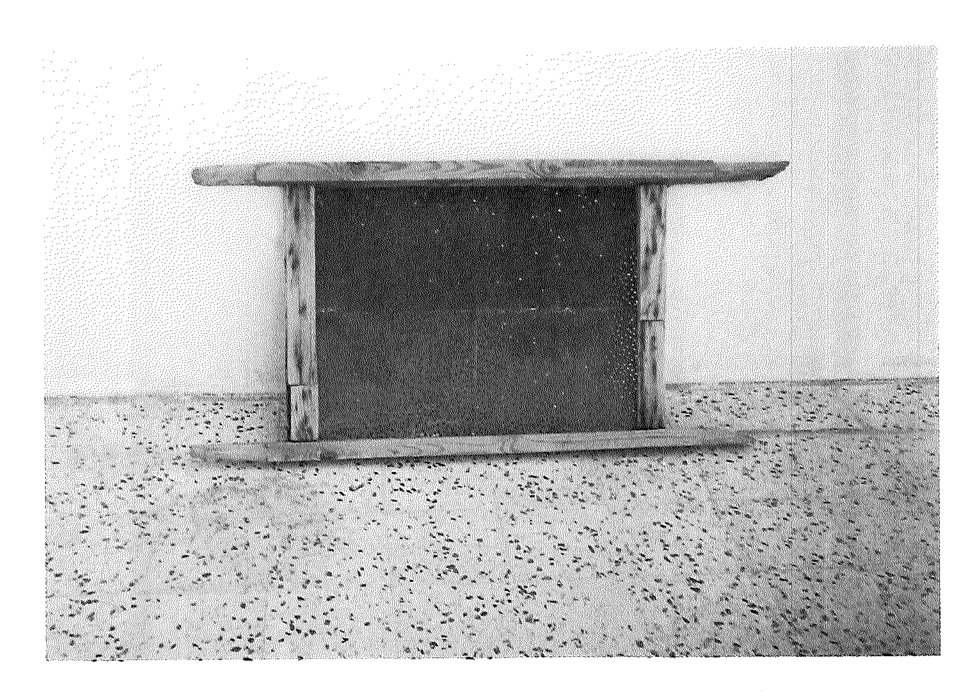
❊ مندف القطن: قوسُهُ ويده.



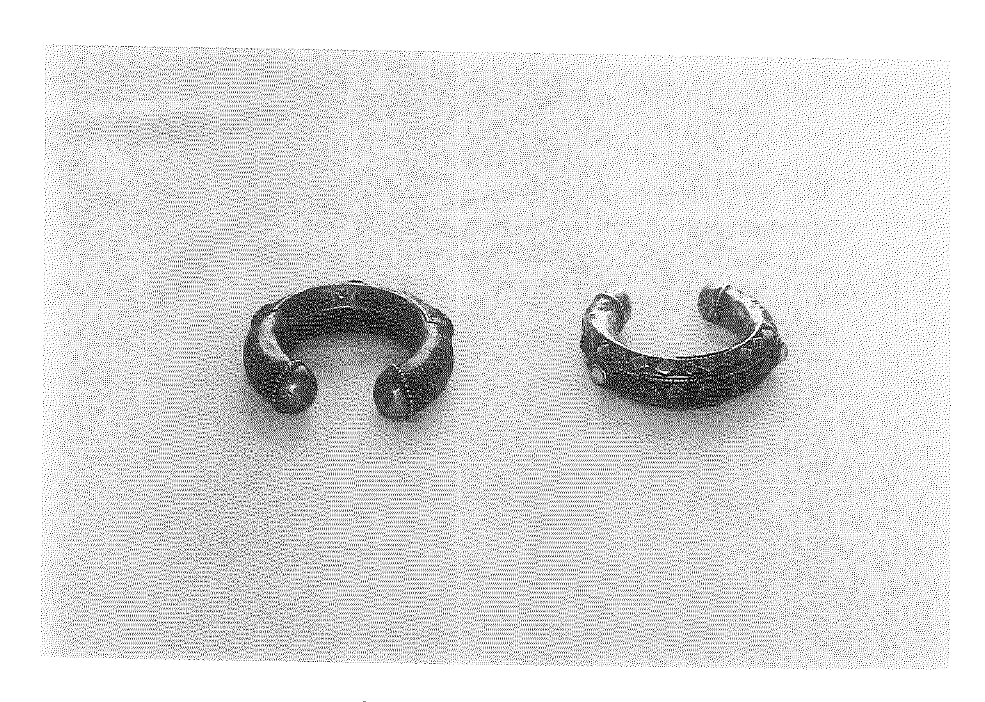
* حقّ والجمع «أحقاق» وهي علب صغيرة يوضع فيها ما لطف من الأشياء، وقد وصفت في المَثَلْ: «حقّ قراقوش منظرة».



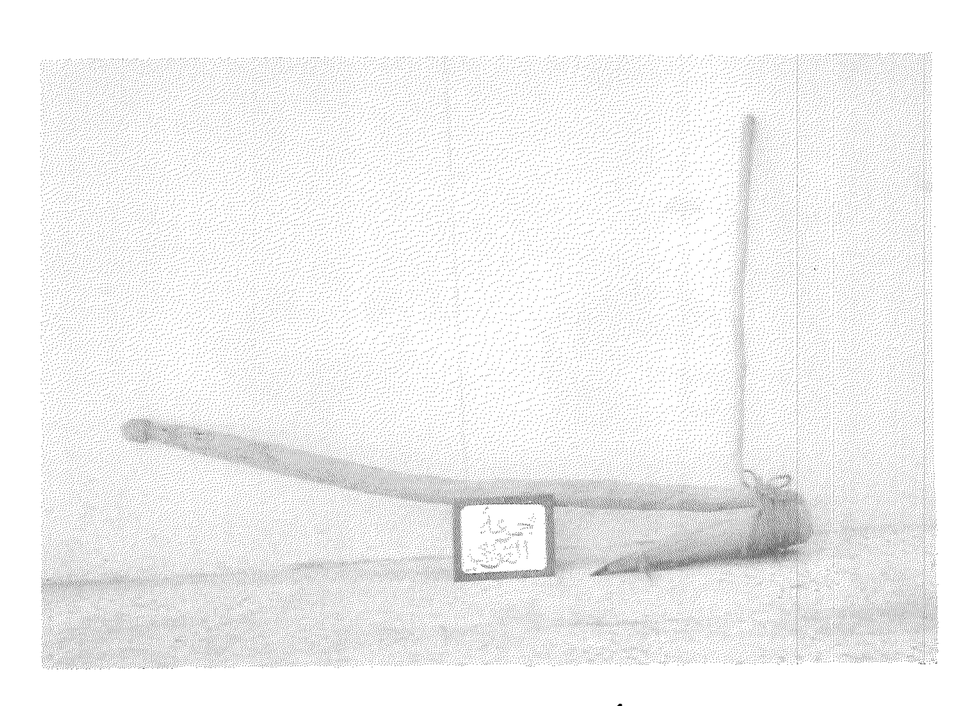
* «الكرّ» وهو الأداة التي يستعملها «الخارف» جاني الرطب من النخلة.



* منخل تُنخل به مواد البناء ويمكن أن يستعمل لغير ذلك.



* «حجول» وهو ما تلبسه المرأة في أسفل الساق، وهو من وسائل الزينة، وبداخله أحجار صغيرة، لها صوت مع المشي.



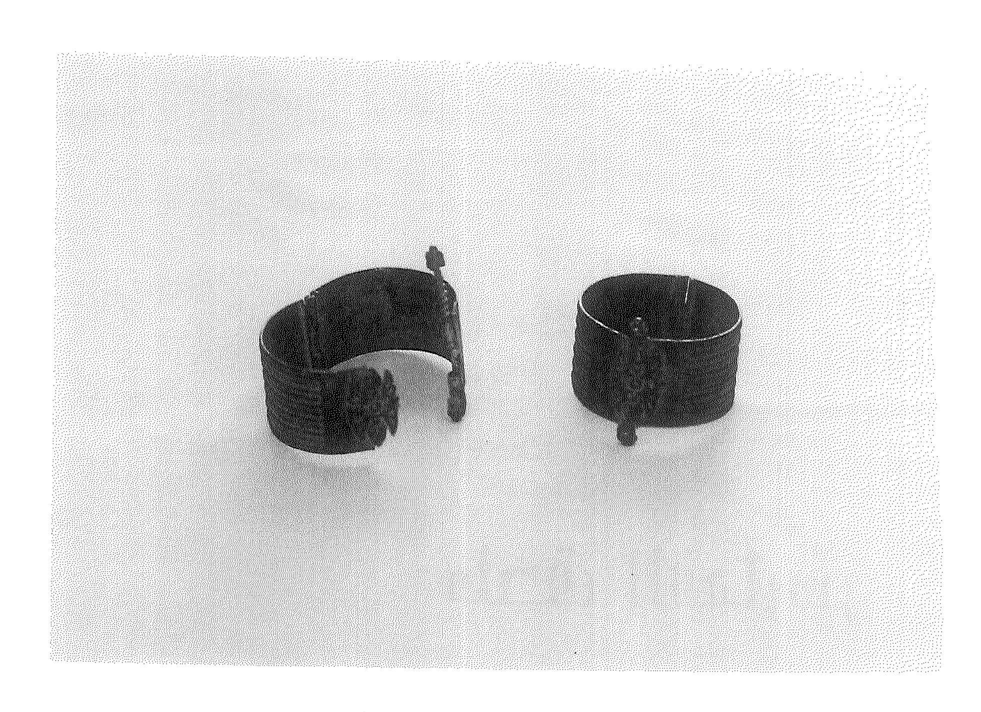
* محراث لقلب الأرض للزرع وهو مما يستعمل باليد، وللدابة آخر يختلف بعض الشيء عن هذا.



* منفاخان لإيقاد النار لعمل القهوة، أحدهما وهو ما به عجلة يُعد نوعاً ما حديثاً، والثاني هو المنفاخ القديم، ومعهما «مهفّة» مروحة من الخوص.



* طشت وإبريق وصابون لغسيل الأيدي قبل الطعام وبعده.



* «بناقر» وهي مما تلبسه المرأة للزينة.

ملحق الفهارس

أولاً : فهرس الموضوعات

أولاً : فهرس الموضوعات

***

ثانياً : فهرس الأسماء

(أ)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(ي)

***

ثالثاً : فهرس الأماكن

(أ)

(ب)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

رابعاً : فهرس الوثائق

***

خامساً : فهرس صور (مدينة عنيزة)

سادساً : فهرس صور (الالعاب)

* هذه الصور مأخوذة من مجموعة الآثار الموجودة في متحف الأخ الأستاذ محمد بن عبدالعزيز القويعي.

كتب صدرت للمؤلف

* نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب: الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
* ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
* ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
* طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغتين العربية والإنجليزية.
* حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
* حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
* من حطب الليل: الطبعة الثانية عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، والثالثة عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
* ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله ابن عثيمين».
* ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُني» في خمسة أجزاء.
* ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: «إطلالة على التراث» سبعة عشر جزءًا.
* ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك».
* ألَّف عام ١٤١٩هـ كتاب: «ملء السلة من ثمر المجلة».
* ألَّف عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م حديث الركبتين.
* ألَّف عام ١٤٢٤هـ كتاب: «لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية».
* ألَّف عام ١٤٢٥هـ كتاب: «دمعة حرى».
* ألَّف عام ١٤٢٦هـ كتاب: «وسم على أديم الزمن. لمحات من الذكريات».



• نبذة عن المؤلف •

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة في القصيم في المملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم في جامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيسا لديوان المراقبة العامة مدة عامين ثم وزيرا للصحة ثم وزيرا للمعارف .
- عيّن في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضوا في مجلس الوزراء .

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض

• هذا الكتاب •

يرسم صورة لطفل يدب نحو الثالثة عشرة من عمره ، في مدينة عنيزة ، حياته مثل آلاف من الصبيان غيره ، وهذا الجزء هو واحد من ثلاثة أجزاء يؤمل أن تعطي صورة صادقة لحياة الصبيان في ذلك الزمن .



ردمك : ٨ - ٧٩٦ - ٤٩ - ٩٩٦٠